إدوار الخراط

رقصة الأشواق

قصص مختارة

الكتاب: رقصة الاشواق (قصص مختارة)

الكاتب: إدوار الخراط

الطبعة: ٢٠١٦

الناشر :وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم -الوحدة العربية -مدكو ر-الهرم - الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ -٣٥٨٦٧٥٧٦ -٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الخراط ، إدوار
رقصة الأشواق– إدوار الخراط –الجيزة – وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٨.
تدمك: ٦-٢٠- ٥٧٧٢ – ٩٧٧
أ – العنوان ٢٤٣ رقم الإيداع / ٩٩/٧٧٩٢

رقصة الأشواق

قصص مختارة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى كل المستهامين برقصات الأشواق

المؤلف

أمام البحر

لا فائدة، في كل مرة يدخل فيها هذا البيت، آتياً من ناحية البحر من خلال الأزقة الضيقة الملتوية، ويتجاوز هذا الباب الخشبي القديم، تصدمه زهومة السلم المظلم الضيق، رائحة من حياة الناس وطبيخهم ونومهم ونسلهم، ووسخهم المتراكم طول السنين.

رائحة لا تنجاب أبداً، معلقة في سحابات راكدة حول خشب الدرابزين بلمعته القاتمة من طول ما تلمسته الأيادي، موجودة على الحائط الحجري الذي تساقط طلاؤه وتركت عليه أجيال متعاقبة من الأطفال تخطيطاتها الصبيانية، وعباراتها البذيئة التي لا تكاد تستبين في العتمة.

وهو يصعد درجات السلم في بطء، يسمع مواقد الجاز تفوح من خلف الأبواب، وأصوات الأمهات المجهدات تدعو على الأولاد الذين لا يهدأون أبداً، وتقرع، وتشتم، وتلعن.

حيوات مزدحمة مليئة، ما نصيبه منها – هو؟ إنه يصعد إلى غرفته الموحشة على السطح، إلى الجدران الصماء التي تحيط بأيامه، تحدق بوحدته، وتحدد فراغ حياته. لا زوجة ولا أم. وعليه أن يعد عشاءه بنفسه كل ليلة. وقد ضجر بذلك كله. نعم. لقد آن أن يترك ذلك كله، وسوف يتركه من الغد، يتركه، نعم لكي يجده مرة أخرى، ويستأنف نفس الحياة في غرفة أخرى على السطح، موحشة، في بلد آخر. عليه أن ينفذ أمر النقل من باكر، ويبحث من الغد عن غرفة أخرى في دنمهور، ينقل إليها مكتبه المتداعي، وسريره القديم، والمائدة التي يطبخ عليها، ويضع أدوات له وكراسي، كل موضوعات حياته. ومن الغد يبدأ تصحيح كراسات أخرى، يسودها تلاميذ جدد بتمرينات الحساب. ويشرح جدول الضرب والقسمة المطولة، وتحويل الأرادب إلى كيلات والفدادين إلى قراريط.

ونوسة ،كلبته؟

كم تحيره هذه المشكلة. ماذا يفعل بها؟ لن ينقلها معه. واضح تماماً أنه لا يستطيع أن ينقلها معه. كان الأمر يبدو له جلياً، نهائياً.. عليه من الغد أن يبدأ حياة جديدة، وعلاقات جديدة. لن يستطيع أن يحيا طول العمر على هذا النحو، وحيداً، مع هذه الكلبة. من الغد صفحة جديدة. أو لا يعرف كيف يظفر باحترام الأولاد. نعم لن يضطرب منه الأمر في الفصل، من غد، لن يفلت منه النظام، وسوف يبدأ في دراسة الرياضيات العيا. منذ سنوات وهو يتحين هذه الفرصة ولا شيء الآن يقف أمامه، لقد عقد عزمه. ويقوم بتمرينات رياضية أيضاً،

كل صباح. خمس دقائق أولاً ثم عشر، ثم ربع ساعة، بانتظام، كل يوم. ويعتني بهندامه، أكثر من الآن. حقاً، هذه فضيحة. كيف قبل حتى الآن أن يرضى بهذا الهندام الزري.. وسوف يبحث عن عروسة.

ما المانع؟ وخفق قلبه. وسوف يهتم بهذا الأمر، في حيطة وحرص وذوق بالطبع، وبعد أن تمضي فترة من الزمن في البلد الجديد، ودون أن يثير ضجة كبيرة. يكلف خاطبة بالبحث عن زوجة أمينة، طيبة، طيعة. ليس ضرورياً أن تكون باهرة الجمال. ليس من الضروري أبداً، بل لا داعي أن تكون جميلة جداً. وهو لا يريدها غنية على الإطلاق، أبداً، وإنما مخلصة بنت أصل. بغض النظر عن الجمال، لا يهمه أن تكون جميلة، ولكن هادئة الطبع، تعني به، وببيته.

وكان ينهج قليلاً عندما وصل إلى باب السطح، سمع نباح نوسة من خلف الباب، وهي تتواثب وتخدش الخشب وتموء في فرح مكتوم، منتظر. كم هي عنفية نوسة. متوثبة بالحيوية.

مشحونة أبداً بالانفعال. وأطلقت الكلبة نبحات قصيرة خافتة، وهي تدفن نفسها بين رجليه. وتمسح جسمها بساقيه في شوق وخضوع. كأنها تهب له كل إخلاصها وولائها، دون تحفظ، وانحنى يمسح شعرها الأبيض الناعم وأحس بين يديه بجسمها الحيواني الذي يتلوى في سورة اللذة. وشعر بين كفيه بحرارتها الصريحة التي لا لبس فيها تموء وتئيط وتهر كأنها تتألم من فرط سرورها به، وترفع إليه عينيها اللتين تسيلان وتشتعلان بملعة ضيقة متقدة قاطعة لا خجل فيها،وكأنها لن تفرغ أبداً

من التمسح به، ودفن بوذها الرطب بين ساقيه وبين ذراعيه، كأنها تريد أن تندمج فيه وتلتصق بجسمه وتفنى فيه ولا تعود شيئاً منفصلاً عنه.

شم البحر يصعد نفسه البليل من بعيد وأحس سخونة الكلبة تسري إليه، فأخذ يدغدها ويدعكها ويضربها ضربات خفيفة بجمع يده على فمها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة شاردة جامدة، وفي عينيه نظرة غريبة.

وشعرت بانفعال سيدها فلم تكد تطيق نفسها من الهيجان فهي تنبح وتنهج وتجري منفلتة عنه في خطوات سريعة ضيقة، ثم تعود مندفعة تقذف بنفسها عليه، بكل عنفها المتوثب بين ساقية، وتعض يديه عضات صغيرة بأسنانها المنداة بريقها الخفيف، وتمسح جنب وجهها في كفيه كأنها تسترحمه وتتضرع إليه في أنين حميم.

وعليه مع ذلك أن يتخلص منها.

–وهو يضربها ضربات أخذت تكتسب شيئاً من القسوة والشدة، ويزداد فرح الكلبة بهذه القسوة منه.. ثم اعتدل، واتجه إلى سور السطح المنخفض، وليس في نفسه شهوة للطعام وليس به من مقدرة على أن يعده لنفسه أيضاً، وأطل على الشارع الضيق في الليل. والسماء فوقه متربة منيرة بالنجوم، ونصف قمر منسى في طرف منها، بريق ضوئه على سطوح البيوت المكومة التي تنهار عليها أطراف السماء المكسورة. وعلامات النيون تحترق من بعيد، في ثبات، كأنها لهفة لا تنطفئ.

فدعها أن تأتي خلفه. وهو ينزل السلم إلى الشارع.

كانت نوسة تجري وراءه، يحصها تتغلب حول خطواته، في انطلاقه، على أبواب البيوت المنخفضة التي تراكم عليها قذر السنين، ورطوبة الأيادي، ورائحة السمك، وجسمها اللدن النشيط فرح بحياته الصغيرة تحت السماء، تجري تشم الأرض وتتكشف الأزقة في انفعال، وتخاف من الصبية فتهرب وهي تنبح في ذعر قصير، ثم تقترب تتشمم النسوة اللاتي يجلسن على العتبات وقد انحسرت ثيابهن الخفيفة الرثة عن جانب من سيقان متعبة مرمية على تراب الشراع، سيقان منسية أجهدت عظامها شهوات طويلة، وانتظارات لا تنتهي إلى شيء وحرمان بذيء.

وخرج فجأة من هذا التيه من البيوت المتضامة الكثيفة إلى الكورنيش،وترام الأنفوشي يأتي مصلصلاً من بعيد، كأنه يحمل رسالة مضيئة إلى أصحابها في نهاية المدينة، ووشوشة البحر تصل إليه، مع هوائها الملح، مهدئة معزية،وأخذت الكلبة قليلاً أمام هذا الانفساح الذي يجابهها فجأة، كأن العالم قد انتهى مرة واحدة، وليس أمامها بعد إلا هذه السعة الرحيبة، تنفتح تحت السماء، لا يفصلها عنها إلا الشارع المسفلت النظيف، فاقتربت من قدميه، تحتمي به، وترفع إليه وجهها في تساؤل وقلق، وهي تزوم في حيرة متطلعة خائفة.

وعبر بها الشارع وهو يناديها خلفه، والسيارات تمرق من ورائهما سريعة خاطفة، تأتي من عالم آخر إلى مقصد لا صلة لهما به، تمر بهما منطلقة بلا اهتمام، أشياء من كون لا يعرفانه.

وقفز من على السور الحجري الصغير إلى الساحل الضيق. وهبط على الرمل الناعم الرطب، وإذا أطرافه يثقلها إرهاق لا قبل له به، فسقط على الشط خائراً. والأمواج الصغيرة ترتمي أمامه على الرمل، في وداعة خادعة لا اطمئنان له فيها. وقوارب الصيادين الصغيرة ملقاة حواليه، حطامات مرمية لا معنى لها تمتد عليها شباك خائنة.

وقد خفت صوت العالم من وراء السور الحجري، وليس إلا صرصارا يصفر وحده في الليل، في نغمة نحيلة ولكنها واضحة، مؤلمة الوضوح، أمام البحر الهادئ. وصوته الصغير دائب، مرتعش، ولكنه مصمم أمام كل هذه المسوات، لن يسكته شيء.

في الغد يبدأ حياة جديدة، في الغد سوف يجد المعنى الذي أفلت منه حتى الآن. وكراسات الحساب سوف تحمل قيمة له، وللأولاد. الحساب، الحساب هو العقل، هو المنهج، هو وزن الأشياء، والطريقة المثلى للوصول إلى ما للمسائل من حقيقة. نعم سوف يعلم الأولاد، من الغد، كيف ينشدون مغزى المسائل، كيف يعملون حتى يصلوا إلى حقيقتها، باتزان، ونظام، وعقل، وسوف يبحث، هو، سوف يعرف كيف يبحث عن معنى حياته الذي تسرب بين أصابعه، وسوف يبدأ هذا في حيطة، وحرص، وذوق بالطبع دون أن يثير ضجة، في اتزان ونظام وعقل. كان هذا ما ينتظره منذ البداية بلا شك وكان بين يديه، لكنه أضاعه، وضل طريقه إليه، حتى الآن.. جميلة؟ لا ليس ضرورياً أن تكون جميلة جداً، أبداً، بل عذبة فاهمة، حنون.

وانتبه إلى نوسة تقفز إلى كتفيه وتلحس وجهه في رفق. كأنها تناديه إليها. وتسترجعه من بعيد، وهي تهز جسمها كله، وتقرب بوزها الصغير المدبب الرطب من خده، وتلتصق ببطنها بين أعلى ذراعه وجانب صدره، تدفن نفهسا تحت كتفه، وتمد له لسانها الرقيق تلحسه لحسات صغيرة طفلية. وعيناها تسيلان من الحب والخضوع، من هبتها لنفسها تقمها له بلا تحفظ، بلا شرط، دون أن تطلب شيئاً.

دفعها عنه في عنف مفاجئ، فسقطت الكلبة على الرمل، ثم هبت على الفور في حيوية وفرحة، تنبح نبحات صغيرة مسرورة، وفي ظنها أنه يلعب معها، وأن المرح الحقيقي سوف يبدأ الآن، إذ تسقط على الرمل وتتمرغ متقلبة ثم تعتدل وتجري وتنط في بهجة لاحد لها.. وأبرق في ذهنه نور ذو شعب، وتبدى له في ضوء ساطع أن عليه الآن أن يخلص منها. الآن. سوف يبدأ غداً في أن يحيا حقيقته. أما الآن فعليه أن ينهي وحدته.

فأمسك بها وهو يقف، ورفعها بين ذراعيه، وذهنه يعمل في توقد سريع. كيف يخلص منها، واستكنت بين ذراعيه وهي ما تزال تتفلت وتموء قليلاً فقد خيب ظنها أنه لم يواصل اللعب لكنها أوت إلى حضنه في راحة وثقة، وأحس جسمها الصغير الوديع إلى صدره آمنا كله تسليم لكنه لن يرجع الآن.

كيف؟ أيضعها تحت الماء بيديه العاريتين؟ حتى تختنق في النهاية؟ وسوف تتملص بكل ما في جسمها من رغبة عنيفة لجوح في الحياة،

بكل ما في عضلاتها وأطرافها من تشبث بالنفس، أيخنق نفسها بيديه تحت الماء، يضغط على رقبتها الصغيرة بأصابعه في قوة وتصميم، وسائر جسمها يتلوى منه تحت الماء، يحاول التفلت من قبضته، حتى تنهد أخيراً وتستكين، مهيضة، لا نبض فيها، جاحظة إليه، بعينيها المذعورتين، المعاتبتين، في إنكار.

لن تواتيه الجرأة أبداً، لن يجد في قلبه هذا العزم.

وكان قد اقترب من حافة الماء، ووقف يرقبها وفي عينيه نظرة ليست منه، واستند إلى قارب يحجبه عن المدينة، ويكتم عنه أصواتها، فكأنه في وحدة مع البراح، والقارب يرتفع شاهقاً خلفه، يحد الكون كله من ورائه، كأنه سور أخير ينتهي إليه كل شيء. والماء يذوب في الرمل تحت قدميه، وهذا القمر المنسي يكاد يختفي خلف أبراج قصر بعيد في سوط البحر، هذا متحف الأحياء المائية، كان ينوي أن يذهب مع التلاميذ في رحلة إليه، لكنه لم يستطع أبداً، لا يدري لماذا، لسبب أو آخر، وهو يبدو الآن كأنه لم قلعة قديمة في جزيرة أسطورية، لن يصل إليها أبداً.

وارتفع الماء فوق رأسه فجأة، ارتفع حتى وصل إلى السماء، وهو نائم على رمل القاع، ملقى على أرض البحر تعلوه أمواج هادئة شاهقة، تحيط به، وتتسايل بجرمها المائي الكبيرة فوقه، دون ثقل. وهو ليس غريباً في الماء، بل ملقى به في جوف المألوف، لكنه مغمض عينيه وفمه، ويرى زرقاء الماء الشفافة فوقه مع ذلك، زرقة ساجية صافية، تتسايل حوله،

دافئة ليس فيها غرابة. نائم على ظهره على الرمل لا يجرؤ أن يفتح فمه ولا عينيه، لكنه يرى النجوم البعيدة من خلف جفنيه، تلمع طافية على سطح الموج العاليو فوقه، كأن السماء تلتصق بلد الماء مباشرة.

وقد اختفت نوسة. لم تمر بذهنه قط. لم تكن قد وجدت في حياته كلها، ولم يكن قد عرفها أبداً. لم تعبر فكره في يوم من الأيام. بعيدة عنه بعيدة. غريبة رغبة تامة كاملة، غربة شيء مجهول لم يعرفه أبداً، لكنه في أزمة. أزمة من نوع هادئ فاجع محتوم. لحظة لها قيمتها الحاسمة الحيوية. كل دقيقة من الزمن لا تعوض. وأخته الصغيرة التي ماتت في صدر شبابها، منذ سنوات، تقف في الماء إلى رأسه وتتكلم إليه في الجو المائي الرقراق. تدعوه ألا يفتح فمه الآن،أن يظل مغمضاً عينيه، لكنه يراها، سوف ينتهي الأمر وشيكاً وهي تكلمه الآن عبر الموج الرقيق، يرى وجهها الأسمر البيضاوي الناعم، من خلال جفنيه المغمضتين، وكأنها تتكلم إليه من فو البحر، من الجو العلوي، فو السماء، من السعة الكبيرة التي ينفسح فهيا الصدر لكي يستروح الهواء الحلو الهفهاف. تهمس إليه في رقة أخوية انتظر قليلاً، انتظر أيضاً، وهي تجره، دون جهد، حتى تخرج به إلى الساحل، وهو ينساب معها دون أدنى مقاومة، نائماً على ظهره على الرمل. وهو هادئ صابر ينتظر حتى تدعوه أن يفتح عينيه وفمه، ينتظر وكل لحظة لها قيمتها النهائية التي لا تعوض، هادئ في أزمة صامتة حتمية من الماء الذي ينساب حوله وفوقه، يملأ أفقه حتى حافة السماء.. وأخته تجره على الرمل كأنه لا يزن

شيئاً على الإطلاق، خفيفاً لا جسم له،جراً بطيئاً لا قياس للزمن فيه. وكل لحظة تمر لها أهميتها القصوى، وتهمس إليه في رقة بصوتها المألوف القديم الحنون. صوتها المتزن العاقل الخافت. وأزمته تزداد عمقاً دون أن يضيق بها، دون أن يحس حرجاً ولا كرباً، كأنه لا يريد أن تنفس في الواقع أبداً، وصدره مثقل وعيناه مغلقتان، ولكنه لن يبقى إلا بضع لحظات أخرى إذا سار الأمر على هذا النحو، بضع لحظات قليلة جداً، إن لم يخرج إلى الساحلو إلى نور السماء الجاف حيث الكون فسيح يهب به الهواء، وأزمته شيء محتوم لا يقبل التفكير، وهو لذلك ملقى بطوله على قاع البحر، قريباًقريباً جداً من الساحل، ولا يملك حراكاً. وأخته الميتة تهمس به، ليس الآن، ليس بعد، في لحظات قلائل. وتجره دون جهد إلى الساحل المنير بضوء القمر الذي يغرق في الأفق. إلى الرمل الجاف تحت سماء الليل البعيدة العالية الرحيبة.

في داخل السور

هنية.. هنية.

استيقظت على الصوت الوهنان العجوز، المثقل بحمل من حنو الأم وضعف السن وحياة طويلة متعبة. والصوت يأتيها من الباب المواربة، عبر جو الغرفة وعتمتها الصباحية الهامد، ونور الشارع يرتعش على الجدار، واهياً متميعاً ليس فيه حدة، وما زال في الغرفة كلها نفس الليل وزهومته الدفيئة المحبوسة المشبعة بريح النوم.

وهي تتقلب على المرتبة القديمة، وتلف حول وركيها الغطاء الخشن المريح وقد اكتسب من طول التفاف بجسمها رباً منها كأنه أصبح بضعة حميمة من جسدها، فهي تحسه يحيطها، إذ تأتي بذراعيها حولها وتثني ساقيها لتضغطا على ثدييها، فتنعم بالتفاف أطرافها حول بعضها بعضاً، وتقفل جسدها على نفسه، آمنة إليه وادعة به، مستريحة إلى حسه المألوف الطيع، لا خطر فيه بل لحظة من الأمان والحب، فتندفع، في

متعتها بنفسها، وقد التفت في البطانية الوثرة الخشنة، تدفن فمها وذقنها في حجرها، وشفتاها تمسان ركبتيها وفخذيها، وقد غرق وجهها في جسمها، واطمأن في موجة صاعدة دافئة لدنة القوام من لحمها، فلن يأتي لهاأن تحس أبداً بهذا القرب وهذه الطاعة وهذه اللذة السهلة المشبعة من شيء، ولا من أحد أبداً، لا شيء يشبه ذلك. لا شيءأبداً يقر من هذا الاندماج البحت التام، فإن الانفصام موجود في كل السكرات الأخرى، والشرخ موجود، يصدع كل تحقق وكل وفاء.

حتى أمها، تلك التي توقظها الآن، وقد أوهنتها السن، فهبطت بصوتها إلى حنو عجوز يائس مجهود.

ويقبض الآن على قلبها مس رقة بنت تحب أمها، وتشترك معها في مشروع خطر يكاد يشفي على الرجيمة. وهي تشفق عليها من التهديد الغامض الذي يحوم حولهما معاً، غير محدود وغير معروف، لكنه مترصد بهما في الخارج، حولهما، وفي نفسيهما أيضاً.

لكن أمها مع ذلك بعيدة عنها، شخص آخر. وخطوط الشيخوخة التي تشقق جلدة وجهها الطرية، وتميع عينيها المشتتين الوانيتين، وتجفف هذه القبضة من الشعر الأملح الذي يتعلق برأسها فتخفيه في منديلها الباهت القديم،كل ذلك يضع بينهما بعداً لا يشتغرق،ويعطي لحنانها نحو أمها عمقاً آخر، كأنه حمل من معنى رسالة تأتيها من شخص يحبها،لكنه بعيد يقطن بلاداً أخرى.

وتمطت في فرشتها، ثم تكورت في حركة مترفة، ورفعت وجهها من بين وركيها، ودفعته مغمضة العينين، وهي ملفوفة في ملاءاتها، إلى حضن مخدتها الندية السخنة من طول التصاق خدها بها في الليل ونشقت من بين كثافة المرتبة والمخدة، تحت الأغطية، ريح جسمها الشبعان من النوم والدفء، ريح معجون بتلبات اللحم وعصارات الليل، ثقيلة حريفة دسمة بدسامة الأحشاء والشهوات المدفونة. نعم ليس لها إلا هذا الجسم وما يحتويه، هذا الجسم الذي يملأ العالم كله،فلا يوجد أبداً شيء خارجه، الحرجة ولا شارع ولا ناس ولا سماء، ليست كلها فيما تحس – إحساسها الغامض الثخين –إلا أبعاداً تحد جسمها وتنتهي على جدوده. فليس يوجد ثم خارج لهذه الحدود، والعالم كله إنما يقع داخل خطوط هذا الشيء الذي لها، وهو كل ما لها، لها وحدها، تلفه بالملاءات وتنشق ريحه الزهمة السخنة وتتمرغ في طياته الداخلية.

ولم يوجد أبداً شيء فيما يعدوه. زوجها الذي كان يأتيها في ليلة خشناً جافاً أوشط على مقاربة الكهولة، وعرقه ممتزج برائحة البصل النئ وتراب المخازن وعفص شوالات الخيش الجاف، فقد كان الرجل تاجر بصل، حتى زوجها لم تكن تحس اعتداءاته عليها اقتحاماً لنفسها، وليس عندها إلا شيء طفيف من إشفاق على هذا الكائن المهجور الذي يأوي إلى جنبها، تحت ذراعها، رأسه الساكت المغمض العينين يكاد يقع على صدرها، مستنفداً، نشف عنه كل حياة، شيئاً جافاً من العظم القديم، كأنه قد مات.. وقد مات فعلاً، منذ سنتين.ولم تستطع أبداً أن

تحس أنها فقدته. فإنه لم يكن لها في أية لحظة. وعندما رأته في ملاءات موته‌ناشفاً ضيئلاً عجوزاً مقدداً، على شفتيه رغوة قليلة باهتة البياض، لم تشعر إلا بشيء طفيف من إشفاق، وهي معزولة عنه، ترقبه من بعد سحيق. ورجعت إلى البيت، بيت أمها، وقد كان لها إيراد صغير من بضعة قراريط، واستأنفت حياة بنت أرملة في الصعيد،مقفلاً عليها بين الجدران القديمة، تروح وتجيء بين الغرفة على السطح والمطبخ فوق السلم، لكن جسمها كان يتمرد بها، وجنبات العالم تنبض بتطلب لا إسكات له. فدفعها هذا التمرد الغامض لمطالبها الخفية أن تفعل ما لم تكد تفعله بنت في العائلة، في مثل موقفها،وحجتها أنها لم تعد بنتاً بعد.

كانت تخرج إلى الزيارات مكشوفة الوجه، كنساء الموظفين الحضريات، كبنات المدارس من الجيل الجديد، وثارت على هذه البريدة التي تتلفف بها النساء في البلد، من الرأس إلى القدمين، ويخرجن بها إلى الشوارع لا تكاد تظهر منهن إلا حدقات الأعين اللامعة في هذه الخيمة الفضفاضة المتحركة السوداء، كأنهن أشياء محظورة، تتحاماها الأبصار، كأنهن موضوعات محرمة تتجسد فيها قوى غير إنسانية مخوفة.

ولم يكن ذلك خطيراً –وإن كان ما زال مهماً – في البلد. ففيها يصح أن ترى زوجات الموظفين وغيرهن في ملابسهن الأوروبية، عليها مسحة من إقليمية، لكنها حضرية في نهاية الأمر،لكن الخطير حقاً أنها كانت أحياناً تأتي بهذا الزي إلى القرية، حيث تقع أرض العائلة. وقد

كان في ذلك فضيحة وأية فضيحة، لكنها عنيدة وقد ركبت رأسها فلم يفلح شيء في ثنيها. وليست العائلة – وهم أقباط – من الفلاحين تماماً، بل يقومون بالتجارة والمزارعة ويرسلون أبناءهم إلى المدارس والكيات، وقد تخرج وعاش منهم في القاهرة أطباء ومهندسون وصيادلة، ولكن البلد هي البلد. وما كان يصح أبداً أن تأتي ذلك، هنية، وحتى زوجات الأطباء والمحامين من العائلة ما كن ليجسرن على تحدي قانون البلد هذا: لا تخرج المرأة، في الصعيد، وفي القرية خاصة، إلا ملففة في أغلفتها السوداء الشاملة وحتى المحامين من العائلة، وكبار رؤوسها، وهم قوم مثقفون، ما استطاعوا أن يبلغوا إلى إقناعها شيئاً. ففي عينيها لمعة تحد، ومتعة بهذا التحدي، وعلى شفتهيا الرقيقتين الضيقتين شيء يتلاعب بأطرافهما كأنه سخرية خفيفة، كأنها تعرف – وهي التي لم تكد تكمل تعليمها الابتدائي – أشياء لم يجسر أحد من هؤلاء الناس على معرفتها، وتواجه في معرفتها تلك حقائق يفرون منها دائماً. وهي في حكتها العصبية المستوفزة، وجسمها الصغير المتوتر بحدته التي لا تكاد تخمد، وضحكتها الجريئة، ومشيتها الواثقة الرشيقة الأنثوية، تفحمهم جميعاً، لا بالكلام بل بمجرد حضورها وبدفق حيويتها، لا بل هي تثير فيهم دائماً خوفاً وقلقاً، كأنها تضع إصبعها على جروح مقفلة، قد رمت على حساسية غير مستقرة، فتمسها وتؤرثها وتكاد تفتحها، تكاد تفتح فيهم أبواباً قلقة على تيارات كانت حياتهم كلها مجهوداً متصلاً لقمعها. نظرتها اللامعة اللامبالية – نظرة قطة فرعونية – من عينين سوداوين

مفتوحتين على آفاق من الجسم تريان كل ما فيه،ولا تريان عيباً فيه، وجسمها كله الذي يعف نفسه ولا يخاف من نفسه، ذلك هو الخطر، الخطر الذي كان يحيق بها أيضاً، ويرود أطراف حياتها.

ومعرفتها الخاصة الخفية لم تعد سراً، فقد تناهى إلى العائلة، وتواتر بين الناس، خبر علاقتها بهذا الفلاح المسلم الذي كان يزرع لهم قراريطهم في القرية، والشائعات ملحة لاذعة تطن حول الرؤوس كذباب عنيد.. هل يبيت هذا الفلاح ليلته، حقاً، في بعض الأحيان، بالبيت؟ مستحيل، وأمها..؟

هل يرى، صحيح، وهو يخرج مع الفجر من الشارع الضيق في البلدة النائمة؟

وما سر انتقالاته المريبة من القرية إلى البلدة، وتردده الكثير على البيت؟ للحساب؟ ومناقشة أحوال الزرع؟

لم لا يذهب إلى كبار رجال العائلة الذين كانت مهمتهم دائماً أن يتولوا هذه الأمور؟ لم يذهب يناقشها مع هاتين المرأتين في بيتهما الضيق المعزول؟ هل هو يذهب حقاً، على أية حال كما تصر الأقاويل أنه يفعل؟

الأم، بصوتها الواني المجهد، تنكر كل ذلك جملة. والبنت لا تكاد تسمعهم حتى تضحك ضحكتها العصبية تلك المثيرة، وتنفي كل شيء في استخفاف، فتزيحه عنها ببساطة، ودون انفعال، اتهامهم ذالك، دون مبالات.

– هنية، جومي يا بنتي الوجت راح.

فرفعت رأسها عن المخدة، وتهدل حولها شعرها الأثيث، ما من أحد يدري مم جاءت بهذه الثروة من الشعر الأسود الصقيل الكثيف، على رأسها الأسمر الدقيق الملامح، كانت بنت من مصر القديمة.

ونزعت الملاءات عنها، فدخلت نفحة من ريح الغرفة الدافئة بين ساقيها العاريتين تحت جلباب نومها الأسود السابغ، وهي تهب نازلة من على السير، فتقع خفيفة مرنة على قدميها، وتحس وبر الكليم الصوفي الخشن يدغدغ باطن قدميها، وهي تبتسم لنفسها ابتسامة خاصة، وغريبة.

– الساعة كام يامه؟

نعم عليها أن تسرع الآن، فقد أوشكت الحموة أن تعلو، وقد تأخرت في الفرش.

وعندما طلعت إلى السطح، سقطت عليها فجأة سماء الصعيد، ثقيلة، مسدودة، كصفحة من رصاص أزرق كاب، لا تطاق. وقد توقف الهواء تحت هذه السماء، كأنه مشدود حتى ليكاد ينقطع في مجهود يستهلك منه آخر طاقته، مجهود احتمال هذه السماء، يتوتر تحتها، مهتزاً دون لحظة راحة، تحت حمله الذي لا يكاد ينهض به، كأنه عضلة تبذل كل عصارة قوتها للقيام بثقل لا يرتخي عنها لحظة واحدة.

وعبرت ساحة السطح إلى الغرفة كأنها تشق موجاً من الحر والجهد يقاومها في ثياب مسدود لم يصل إلى توازنه القلق إلا بجهد جهيد.

ورأت أمام الفرن، مقعية ترمي إليه بالوقود، وتعد عدتها لإشعاله، تحركها حياة صغيرة منشغلة مهمومة، مطوية. وعاودها مس تلك الرقة المخزنة التي تداعب قلبها في لطف لا صبر لها عليه، في حساسية مرهفة كلمسة شفرة حادة عذبة المقطع، كجرح فجائي في غاية الرقة، وحلو، لكنها وقفت بباب غرفة الفرن، مع ذلك، تسلم على أمها من بعيد. فلن تستطيع أبداً أن تذهب لها، وتحيط كتفيها الوانتين بذراعها وتقبلها، وإن عذبتها الآن رغبتها في ذلك. حركة مثل هذه ليست بالمألوفة بين البنت وأمها، عندنا، ولا معرفة لهاأبداً بها أيضاً. لن تعرف أبداً كيف تنقل إلى أمها رسالة هذا الحنان الذي يقطع في روحها جرحاً الآن، ولن تعرف أمها شيئاً. وستذهب.

واستدارت تشق موجة السماء الحارة الثقيلة المتوترة أبداً باهتزاز عزم سخن مسفوح حتى آخر قطرة.

وخفت عنها حملها إذ تيسر في ظل البيوت القديمة المتقاربة في شارع البلد، وهي تخطو على التراب المرشوش في الطريق، وقد انزاح عن كاهلها لحظة، عبء حبها لأمها وعبء السماء، فراحت تذرع الشوارع الضيقة الملفوفة المتراكبة البيوت، نشطة في ثيابها الأوروبية المنسرحة على هيكلها الضيق الممشوق، وقد انشغل ذهنها بمهمتها.

بالأمس جاءها من زكرى خبر يدعوها للذهاب إلى الجنينة في الغد لتسوية حسابات الموسموم ومناقشة أمور الأرض، مع "بقطر" ابن عمها، و"شفيق".

وقد كان الذهاب إلى الجنينة، في أرض العائلة، يشوقها دائماً ويثيرها. كأنها ما زالت تحتفظ بسحر نزهاتها الطفلية فيها، وهي لا بد اليوم راجعة بشيء من الفاكهة، هدية، وربما قبضت شيئاً من حسابها وحساب أمها. وقد كان يمكن أن يأتوا لمحاسبتهما في البيت، هذا صحيح، لكن فكرة الجنينة، والفسحة، والظل البليل تحت الأشجار الضخمة العتيقة وخرير المياه الطينية القليلة في الترعة الضيقة التي تنسرب، كالخيط الملتوي، من الساقية، هذا الصوت المائي الرطب في الظهر الحار المفتوح المنفسح أمام نسيم الخلاء، ذلك كله يدغدغ في أعماقها حساً بالتشوف واللهفة، والنزعة إلى الانطلاق، ويهدهد مع ذلك مخاوف مبهمة. إنها لا تخشى هؤلاء الناس، أقاربها، ولكن تشعر أمامهم بالغربة، كأنما لا يربط بينهم جميعاً دم الأسرة الواحدة، كأنها لا تعرف من همهي لا تنظر إلى عيونهم مرة إلا رأت عالماً بعيداً مقفلاً لا صلة لها به. وأرقامهم وحساباتهم وهمومهم التي لا تنتهي عن المحصول والبيع، والإيجار والرهونات،لم تحاول أبداً أن تفهم شيئاً من ذلك كله، وكان يبدو لها كل هذا لهم عناء سخيفاً لا ضرورة له، ولا ووزن له على أي حال. وكان يسئمها ويضجرها الحساب، ولا شك أنهم يغشونها، لكن لا يهمها ذلك، وبالرغم من أن كل قرش، لا شك ينفع.

واجهت النيل فجأة، فنزلت من على شارع البحر إلى رصيف المعدية التي تعبر بها النيل إلى أرضهم في الشط الآخر، ومنها إلى الجنينة. وكان على الرصيف بضعة أفندية يلبس أحدهم طربوشاً وبذلة حائلة

وأوراقاً، ربما كان محضراً، أو من رجال الإدارة أو المحكمة،والآخرين تجاراً ومزارعين وفلاحين، يجر أحدهم معه جاموسته يعبر بها النيل، ذاهبين إلى القرية التي تقع على بعد قليل من الجنينة،وامرأتان أيضاً في بردتيهما السوداوين، متلففتين في سخونة الضحى العالي، مدفأتين في الأنسجة الثقيلة الحالكة، حتى لا تراهما أعين الغرباء.

وجاءت المعدية فخطت إليها، وشعرت بأرضيتها القلقة تحت قدميها تتأريجح هينة على صفحة ماء الشط، وتهتز فتشعرها، تحت جسمها الواقف في توزن حرج، بهذا الخطر الخفيف اللذيذ الذي يلعب طافياً في رقة هشة لكن متماسكة، على مياه النيل.

وإذ تحركت المعدية هب الهواء آتياً من على النهر العريض الفسيح، ومياهه تجري تحتها في جلال هادئ، تشعرها بشيء م الرهبة لا يكاد يستبين، وقد حان إنزال عبء السماء الثقيلة عنها، كأن في النهر سحره الإلهي القديم، فإذا بالسماء ترتفع عن أكتاف الناس –طالما كانوا بين ذراعيه – وإذا صدورهم تنشق إلى أعماقها، رحبة منفرجة الآفاق، تمتد في داخلهم حرية ممدودة شاسعة.

وكانت المعدية العريضة تضطرب فوق تيار الماء العريض المليء، ولاجاموسة تخور فجأة رافعة رأسها نحو وقدة الظهر تحت المساء، ثم تعود تجتر ويتساقط من خطمها على خشب المعدية خيط أبيض من لعاب طويل.

وهم يقتربون من الشط الآخر، وقد بدأ النخيل والشجر في أكوامه المتقاربة يكبر رويداً ويتضح ويتحدد، ويقبض على قلبها شيء كالخوف، مرة أخرى، إذ تنتقل من عالم مألوف إلى أرض مجهولة محفوفة بالتهديدات تترصدها بين الأشجار الأثيثة التي تترقبها كعيون جائعة من عالم آخر. كأن هذا النهر سوف يلقيها، ويهجرها، وحدها، على هذه الأرض، وسوف يسترد لنفسه ما أعطاها لحظة من حرية ورحابة وامتدد فسيح في الصدر، ثم يذهب في طريقه، غير مفهوم، إلى مصيره الذي ليس من مصير الناس.

أما هي فتقع على الشط، جسمها الصغير الذي هو كل ما لها هنا في العالم، كل ما لها في أي مكان. جسمها الضيق النابض الذي تنطبق جوانبه على العالم مرة أخرى، فتخطه وتحده وتقفله. وأحست بالسماء تعود فجأة فتنحط عليها. لقد انتهت الرقية. وهي إذ تخطو على تراب الطريق الذي يفضي إلى الجنينة، تهبط السماء عليها كيد صلبة، تطحن كتفيها، وتكاد تغور بها في الأرض. نعم، قد تأخرت وها هي حموة الظهر قد علت وقد عاد الجو مسدوداً، في حرارته المرتعشة، بين غيطان الذرة تحيط بها كجدران من الخضرة المرتفعة المتراكمة يعلوها التراب، وهي تكاد تشهق وتختنق في هذا الهواء المترب المشدود بين الأرض والسماء المنطبقة.

وكان الفلاحون يماشونها بضعة من الطريق، بوجوههم السمراء الصفراء، تنفتح فيها، ولما تكد، عيون مسحوقة جائعة فيها كل الحزن

وكل الخرس وكل الشقاء الذي لم يبحث أبداً،ولم يشتبه أبداً في وجود شيء، شقاء بليد من طول رسوخه، هو قوام الحياة كلها. وأحست بنظراتهم تماشيها، وفيها ألمهم الجاف الصلب الذي نزل عن كل اتهام وعن كل رغبة في الفهم أو التبرير،هذا الألم الذي ليس له إطلاقاً غير ثقة الرزاح الوطيد الذي لا يطاق، والذي يستمر مع ذلك ويطاق، دون أن ينال منه أقل أمل،فهو ألم صرف خالص لا يعي شيئاً إلا ثباته الذي لا يتزحزح أبداً.

ثم تشعب بهم الطريق، فمضى الفلاحون إلى الرقية، وأخذت هنية ممراً ضيقاً يفضى إلى الجنينة، وارتاحت الآن من هذه النظرة التي كانت تقع عليها كأنها تقع على حيوان غريب،غير مفهوم أيضاً ككل شيء، فكل ما يحيط بهم غير مفهوم،ولا رغبة لديهم في أن يكون مفهوماً – حتى هذا الثقل الذي هو وزن حياتهم.

نعم، أحست الآن أنها ليست شيئاً. هذه النظرة التي ترودها، وتتخايل لها من تلك الوجوه الصفراء المسودة الناحلة، وهذه السماء الثقيلة، تعود فتشعرها أن ليس لها شيء. ليس لها حتى هذا الجسم الذي تهده حرارة الظهر ونبضة الإجهاد في دماء بطيئة سخنة، وهذا العرق الذي يلتصق به التراب وينضح تحت إبطيها، وفي داخلها، بخوف غير واضح لكنه يعتصر عقدة صغيرة صلبة نيدة في نسيج أحشائها، خوف من الغيطان المتقاربة الكثيفة الضيقة المسالك، من قصص العصابات والقتل والخطف والفدية التي دارت في هذه الطرق الضيقة بين الغيطان، هجمات الرجال الذين يطبقون على فرائسهم، متحركين بعنف بدائي

وحشي، بتمرد الإنكار الكلي، بالدم الذي يقامر بالسماء والأرض جميعاً في يأس لم يعد يقبل الخضوع الذي لا نهاية له.

وهذا اليأس، ورغبات الرجال، ما زالت هناك. تحسها متعلقة بهذه العيدان من الذرة المليئة المتضامة المكسورة بتراب خفيف. كأنها قد انفصلت عن الرجال –تلك الرغبات الناهشة اليائسة – وتعلقت بحرارة الظهر ونزوات لا ري لها ولا استرضاء أبداً، شهوات التمرد وجمحات الخطف والهبش والسلب والعدوان، خارجة من ظلمة أركان النفوس التي سدت كل السبل، اغتصابات اكتسبت حياة مستقلة عنيدة غير ملموسة، تبث في الظهر كله أنفاسها القابضة لا متهددة اللإنسانية.. وهي إذ ترمق الغيطان خلسة، وينوشها هذا الخوف، في عمقها، لا تعود تحس بقيمة، أية قيمة، لنفسها. وتسير إلى الأمام تتعلق بأطراق شجاعتها القديمة، تتشبث بها كخشبة في بحر غرقها.. وهي تسير وحدها في هذه الوحشية المصمتة التي لا فراغ ولا هواء فيها، وتشق هذا الامتلاء الثقيل السخن الذي لا يكاد ينفتح حتى يوصد ثانية، أمامها وخلفها ومن كل ناحية، كأنه، إذ تنسل في قلبه، يعود ثانية فيحيط بها، لا يعترف بها، وإذ تشق شرخها الرفيع فيه، يعود فيلتئم على الفور من حولها، ينكرها ويلفظها باستمرار، ويمحوها.. ووجدت أمامها سور الجنينة فجأة، على غير انتظار، كأنه قام في نهاية الطريق، في لحظة واحدة، ونهض من التراب قبالتها، ضخماً بأحجاره القديمة الصلبة لم يكد طول مر الأيام أن ينال منها. كانت الجنية ميراثاً لعائلتهم من قديم،

لعل أحد أجدادها اشتراها من أحد كبار الملاك من زمن بعيد. وكانت رصيداً من الفخر والكبر للعائلة كلها، هذه الجنينة الواسعة العتيقة الغنية، على أرضها المرتفعة شيئاً، بسورها الضخم المتين.

وردت لوحة الباب الخشبي العتيق فصر على مفصلاته الصدئه. وتركت قدماها تراب الطريق الضيق الخانق إلى فسحة من طريق واسع، تنمو الأعشاب والحلفا الشائكة على جوانبه، تحت الأشجار الغليظة الوارفة ذات العضلات الخشبية المتينة.

وكانت الحديثة خالية، صامتة، واسعة، تتبدى في نهايتها، من بين جذوع الشجر المفتولة والسامقة، أحجار السور العتيقة المحملة برسالة ملغوزة لا تنطق. وارتفت من أشجار اللبخ الممشوقة، فجأة، صرخة غراب يفزع إلى السماء، وأجنحته تصطفق.

ودارت بنظرها في هذا الامتداد الخاوي. وسارت إلى السقيفة في آخر الجنينة، وهي تحس أنها وحدها في العالم، وحدها حتى دون خوف، ودون أمل، ودون رغبة. وحدها تماماً كأن العالم كله قد أفرغ مرة واحدة من الناس جميعاً، بل كأن الناس لم يمروا قط على صفحته، كأنها فكرة مغايرة أجنبية لم تخطر له على ذهن، ولم يكن من الممكن أن تخطر على ذهنه الناس.

الوحشية، هدوء الأرض التي تتنفس حرارتها المتربة الخاصة، والطرق المصنوعة كي لا يمشي فيها أحد، والساقية تدور وحدها، تجرها هذه البقرة المعصوبة العينين، دون توقف، منذ أزل لا بداية له، دون أن

يسيرها أحد، كأنها انبثقت هناك، من تلقاء نفسها تجوب دون انتهاء دائتها المفلة المتصلة.. كانت وهي تسير نحو السقيفة تشعر بشيء كأنه سلام الرضا والتسليم، تحس قناعة بهذه الحديقة الواسعة المهجورة منذ الأبد، بأشجارها العتيقة الملفوفة العضلات، وطرقاتها الفسيحة الترابية، وأرضها غير المستوية، وأكوام ترابها، ونخيلها السامق، والمعوج، وسمائها البعيدة الزرقاء المحايدة، وهذا السور الذي ينتهي عنده كل شيء.

وانحرفت، وهي تسير كأنها ليست هناك، نحو السقيفة التي يتنظرها فيها أقاربها.. بقطر، ابن عمها مباشرة، يكبرها بعشر سنين، وهي تعرف ذلك، وتحفظه كأنها تجد فيه شيئاً من الفخر، وصلة أخرى تربط بينهما، وكم هو قوي متين الأسر، فيه تلك السمرة الرائعة، ولخطوط وجهه استقامة وصرامة، وفي عينيه نظرة ثقة وتملك، طوال فارع الطول، ونزيه. وهو أبرز رجال العائلة وأنقههم سمتاً أيضاً. وهو الوحيد فيهم الذي لم يكد يكلمها بشيء في موضوعها ولم يكد يوجه لها سؤالا أو نصحاً أو لوماً، أكثرهم قصداً في كلمته، وأكثرهم إدانة لها، بنظراته المتغلغلة التي يسودها به، ويحيلها أمامه إلى شيء صغير. وهو الوحيد الذي تستشعر أمامه هبوة من الخوف تتطاير في نفسها، وإعجاباً فسيحاً.

أما شفيق فقد كان قد رجع من الجامعة منذ سنوات، وهجر ملابسه الأوروبية، واطمأن إلى بيته وأطيانه وجلبابه الواسع، واكتسب لحماً رهلاً يحيط بكرشه وذقنه، وهو يكاد يكون ناعماً، وتقاطيع وجهه بسمنتها وبياضها رخية دسمة، تتألق فهيا عينان صغيرتان نائمتان. وقد

كانت تحس عينيه مع ذلك تعرياها، دائماً، تشتهياها وتحومان حولها، تدوران على سطح جسمها، دون جرأة على لمسها أو الدخول إليها. كانا ندين من عمر واحد، وكانا –قبل أن يذهب إلى القاهرة في الطفولة الباكرة – يلعبان معاً، لكنه تزوج امرأته تلك النحيلة الممصوصة، لأطيانها. وتركها تقع إلى زوجها الشيخ، وأمن إلى الدعة ولاراحة في بيته الكبير، وإلى ليالي السكر التي لا تنتهي إلا مع الصبح. وهو إذ يأتي موضوعها عصبي يتدفق بالثورة والشتيمة والتهديدات.

يبقى زكري رأس العائلة فعلاً وأكبر رجالها المعدودين سناً ومقاماً. وهو لا ينتهي من أعماله، تأجير ومزارعة ووكالة،ولا يزال رائحاً غادياً يهد الأرض تحت قدميه الغليظتين، بجسمه القصير السمين، لكن شخصيته القوية تنتزع الاحترام، وحيويته لا تنفذ ولا تهمد، وصوته الأجش المحوح فيه عمق من ذكاء، وهو لا يحول عينيه لحظة عن المصلحة والمكسب،وهو أرقهم لها حديثاً إذ يكتب صوته تلك النبرة الببأبوية الملاطفة الوقور، وينصح لها ويدعوها أن تراعى على الأقل ما يتقول به الناس، ومركز العائلة. والمسيح الرب يدخل ويخرج من حديثه، وشرف الآباء، وموقفنا كأقباط، ترفرف كلها كالأعلام، عالية فوق كلماته المبحوحة التي تسقط في النهاية إلى مللال وما يشبه اللامبالاة.. سيحاسبها الثلاثة، كل فيما يتعلق به، عن محصول الموسم.. نعم، وستنتهي من الحساب سريعاً، وتخرج برمانتين وسباطة بلح، وترود الجنينة وحدها. وتشم هواء العصر.. ودهشت قليلاً،قليلاً جداً، من أنها لم

تلحظ السقيفة قبل الآن، هذه الحيطان العريضة المنخفضة المكسورة الأطراف تغطيها فروع من النخل الجاف، وحصر، وأعواد حطب القطن المجدولة المرصوصة. لم تلحظ أن السقيفة هي هذه الحيطان المنخفضة.

ودخلت السقيفة دون أن تلقى حتى نظرة أخيرة على الثروات المهجورة التي تخلفها وراءها، هذه الأشجار والنخل، نازعة نحو السماء بلا جدوى، وهذه الساقية تدور دون تقف،دؤوباً مستمرة صامتة منذ زمن لا تاريخ فيه.. ودهمتها إذ تخطو إلى الداخل عتمة خفيفة مشبعة برائحة التراب والظل الرطيب.

وجابهتها المسوخ الثلاثة في العتمة البليلة الترابية. وتجمدت نفسها على الفور. وفارقتها كل مقدرة على العمل، حتى على المشي خطوة واحدة أيضاً، وقفت على الباب،ولم تعد تملك لنفسها شيئاً كأنها هنا أيضاً ترقب نفسهامن بعيد.

وكانت تحيط بهم جميعاً رهبة نهائية قاضية لا فكاك منها. شفيق بعينيه اللامعتين في وجهه الدسم المندي بعرق خفيف، كأنما يغتصبها الآن بعد طول انتظار، وزكري بعيد، كبرج خلفي من هذا الهيكل المنخفض الضخم الثابت القديم الذي يواجهها الآن والذي عليها أن تدخله. وبقطر هو عمود هذا الصرح، وقد وقف في غير تعجل، وألقى بسيجارته إلى الأرض في حركة هادئة،وهب شامخاً كأنه كاهن فتى قوي في كنيسة عتيقة أثرية، وبوجهه الأمسر نبل مصمم صليبي فيه بشاعة الحكم، وحتمية لا انحراف عنها، لا مفر أمامها، لا تخطر بالذهب

أمامها، على الإطلاق، فكرة الهرب –فهي تسحق، دون أدنى جهد، كل مقاومة، وتقبض على ما هو لها منذ البدء في ملكية واثقة نهائية.

وسمعته يقول كأنها في حلم، من آخر العتمة التي تضح لها قليلاً قليلاً في نور غريب:

– تعالي يا هنية.

ولم تستطع أن تفتح فمها، ولا أن تحرك قدميها، وخيل لها أنها ستنهار الآن، في أية لحظة، زايلتها كل شجاعة كأنها لم تكن أبداً تلك البنت الجسور الساخرة التي تخط طريقها بنفسها في وسط المدينة، وبالرغم من الجميع، لكنها لم تقع، وهذا الانتظار الحميم يشغلها عن كل شيء، انتظار أن تقع الآن، هذه اللحظة، على الأرض. لكن اللحظات تمر،وهي لا تقع بل تقف معلقة أبداً على حافة الوقوع، مهتزة في توتر يستنفد منها كل طاقة، وليس في مقدورها شيء على الإطلاق.

ورأته يقترب منها بخطوات واسعة ليس فيها حدة، بل واجب، ورأت تقاطيع وجهه قريبة فجأة من عينيها، مكبرة ألف ضعف، وفي نظرته تصميم لا نهاية لعمقه. وأحست حركة مضربة، وإذا بيدين تقبضان فجأة على يديها، ويدين تقفلان فمها، ويدين تطبقان على عنقها، وإذا فمها ينسحق فجأة على صدر قوي فتسد شفتاها إلى الأبد، وإذا بيدين تأخذان رجليها، فترتفع مرة واحدة عن الأرض بين أجسام الرجال، مغلولة فجأة في شبكة من الأيادي والأصابع القوية.

تحيط بها كابلات حية غائرة في كل أطرافها، والأذرع والصدور أسوار وجدران قابضة مطبقة.

عندئذ، في لحظتها تلك الواحدة، انفك الأسر الذي كان يلفها من الداخل، وانبثقت في أحشائها نزعة حارة نحو الحياة، لهب كاو مشرق غير عاقل يحرق داخلها شوقاً إلى البقاء، توقاً إلى الاستمرار، رغبة في مواصلة امتلاك هذا الجسم الذي يقع الآن أسيراً في أغلال من الأيدي القابضة التي لن تنفك، وهي الآن قد انفجرت كتلة متخبطة متملصة من الأطراف والعضلات الحية تناضل بين هؤلاء الرجال وتبذل مجهوداً لم تكن تعرف من أين تستمد القوة عليه، في تصميمها على التفلت، في عزمها على الانطلاق، في نزعتها التي لا ترد إلى الخروج تحت السماء، إلى الانفلات من هذه الأذرع والصدور. الانفلات. الانفلات.

وصوتها الذي تريد به أن يملأ جنبات العالم لا تخرج منه إلى حشرجة تختنق في عمق حلقها. ويداها تكادان تتكسران في يدي زكري هذا الذي يضغط ظهرها بكرشه حتى يتملكها تماماً. وضغط هائل متركز في أصابع من الحديد يقبض الآن على عنقها، وهي تحدق في وجه بقطر الأسمر العنيف المكبوح النافر العروق الذي لم يعد إنسانياً في جهده الضخم المبذول، جهد كل جسمه وجهد يديه المعتصرتين، بل كل أجسام الرجال في كل الأراضي في كل الأزمان، جهد كأنه يأتي من جسم العالم كله، وهو يطبق عليها، يسد مسالك التنفس عليها، يخنقها دون هوادة ويتزايد كل لحظة، ويثقل وطؤه ويطبق ضغطه، وهي تحس

فجأة رجلين تنفذان بين ساقيها العاريتين المعلقتين، من الداخل، ويدين تضغطان على كاهليها في مسكة متوترة كأن فيها ثملاً غريباً مميتاً، وهذا جسمها الذي تريده بكل قواها أن يتمزق مفلتاً، يستسلم الآن بالرغم عنها لضغط متملك من جسم آخر طالما عراها بنظرته، يستسلم له كأنه يقبله ويعنو له.

لكنها ما تزال تصرخ، ولا صوت يخرج منها، صرخة صامتة تهد جنبات العالم،وتنفلت في تمرد لن يقبل أبداً ولن يخضع أبداً. وتخبط بقبضتيها المغلولتين على أحجار سور لن يستسلم لها ولن يخضع ولا ينثني مع ذلك تخبط عليه وتدقه وتحطمه، لكي تنفذ منه إلى الفضاء، تنطلق. وما تزال تضرب الأرض بقدميها في عناد وإصرار لن يهدأ إلى الأبد، لن يهدأ.

أسقط الرجال ما بقى في أيديهم منها، على الأرض – وخرجوا ينشقون نسمة هواء، ويشربون سيجارة، تحت السماء المغلقة المحايدة.

جرح مفتوح

النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب، وهواء الصعيد الجاف له موسيقاه، ومن الداخل تأتيه رائحة الطلاء على الجدران الجديدة، تحترق من الحر. وهو لا يكاد يتبين قامات الرجال، كالأعمدة، أكتافهم حجرية، تحت ثيابهم الفضفاضة، كأنهم ليسوا هناك، في ظلام الشارع الضيق، في البعد الغائر العميق. برك النور من الفوانيس، آسنة، تطفو عليها سحابات الهاموش الليلي وهي تموج، من غير صوت.

القبة العريضة صدر ممتلئ بشهيق محبوس، لا ينفرج أبداً عن زفير، وقد انعقدت عليها طبقات مترسبة في نفش مطموس المعنى، والسقف الواطئ المتين يقطعه ضلع مكسور التأم بالتراب القديم، ويصعد منه البرج المربع القصير، تأتي السماء الصلبة من روائه، وتخترقه، تثبت فيه، مثقوبة بإبر مشعة لا عداد لها، بين الجوانب الراسخة السميكة. جرم الجرس الضخم المعلق، أخرس ملجماً، يثقل البناء الجائم، تحت، في وسط ربوة

الأرض المنحدرة مدفونة فيها درجات السلم الرخامي الناعمة المدورة الحواف يتخايل وضحات الباهت، من عالم سفلي.

وهو يستدير إليها جالسة في النور الأزرق الناصع الذي يتقد، مدلي من الحبل الأبيض الرفيع المضفور، ساكتة، محنية رأسها، شعرها جدائل كتان سوداء كثيفة، يفور تحت الطرحة التي علق بسوادها التراب. ساقاها، حتى القدمين، تحت الجلابية الضافية، ممتدتان إلى جانبها، هيكل ساقط بين حقول الكليم الصوفي الخشن النبات.

– أجيه.. أجيه

يربطهما هذا الدم الواحد الرازح الوطأة، وهذه العشرة فدادين من الأرض في حضن صخور الجبل.

كانت خطواتها، طول عمره، حذو خطواته. قرينته، يحسها معه ولو كانت غائبة، يحس وقع نظراتها عليه، صابرة مطيعة، الأخت التي لا عوض عنها أبداً، معه في كل مكان.

– اسم الله عليك، وعلى أختك.

كان صوت أمه يجيئه، ملهوفاً، يقيله من عثرته، عندما يقع على العتبة الرخامية الممسوحة.

– أنت الآن أبي، وأمي، وأخي معا.. قم الآن كل لقمة.. قم، تنام وتستريح سحابة الليل، حتى يصبح الصباح.

كان مكسوراً، خاوياً في آخر الليل. فقد كل ماء الحياة. عيناه حجريتان نضبت عنهما كل عصارة.

في عينيه الحفرة الطينية التي أسقط إليها النعش. وما زال صوت التراب، وهو يسقط على خشب، يغص له حلقه – ارتياح آخر الأعمدة في حضن الأرض – وكان يغالب إجهاش الشهيق المكتوم.

– نام يا خوي.. يا خوي! يا بوي! يا بوي..!

صرخة اليتم الكاوية التي لا يندمل جرحها أبداً. لقد انقضى آخر يوم من مجدها.

ماذا حدث الآن؟ ماذا يحدث؟ كيف يطيق مرآها؟ كيف تثبت عيناه بهذا الوجه الصغير الرقراق الذي تخفى نصفه تحت الطرحة السوداء، ولا ترحان؟ ولا يستطيع أن يحول بصره عن هذه القامة الناضجة العذراء تنسدل الجلابية على ثمرتيها الراسختين، لهما نداء آمر البنرة، فيها ثبات لدن، بقوته الخاصة، وتحديه، بمطالبته الخاصة التي لا يمكن أن تهدر.

يدها الأخرى، بأصابع طويلة عظيمة، تمسل بقماش الطرحة الرقيق على صفحة وجهها. عينان تنظران إليه، موجتين هادئتين، من وراء كل الزمن.

قدماها الحافيتان لا يكاد يند صوت عن وقعهما الرخص، على البلاط الممسوح في الطرقة، وفي يدها الشاي، موجته الصغيرة وراء الضفاف الشفافة تهتز على قاعدة سميكة مدورة من الزجاج.

وهو يرد سماء الليل بيده، خارج النافذة، كل الوحوش الآن في الخارج، محبوسة. ويهتز مصباح النور العاري لصوت الاصطفاق المكتوم.

هما الآن في جسن جديد مضيء، والعمارة العالية كلها تحتها برج هش من الطوب والأسمنت والبلاط، تصطرع في قفصه العلوي حمامتان.

وهو يضع كوب الشاي على زجاج الكومودينو المصقول الذي برق في النور، ويشاهدها إليه، سلسلة منقادة، لا تكاد تعترض:

– لا يا سيدي.. لا يا سيدي..

ويدفعها بجانبه على السرر، وما زالت الملاءة البيضاء المفروشة تشع بوهج النار.

كانت مع أبيه من قبل. خدمتهم كلهم. وعى لنفسه وهو يراها، كما هي، لم تتغير، الأيام ترتفع وتنحسر وهي نفسها "أجية". هذا الوجه البني المحروق، بعينيه المخطوطتين بالكحل الطويل، سوادهما عميق، صموت، ومتسائل، صورة مدفونة بين صفحات الكتاب القديم الذي كان يلقب رموزه في طفولته، والأنف الأقني الصخري،ناعماً وحساساً مع ذلك. قالوا إنها كنت عند جده،وكانت أيضاً هناك عند آباء جده، من أيام جده السابع القديم، ذلك الذي جاء، لا يدري أحد من أين، ليستقر هنا، ويشتري الأرض، رملية مالحة هنا، وسوداء غمقة هناك. جففها، وغطاها بجسده وعره، حتى اخضرت بين يديه، وامتدت إلى النيل. لم يبق منها الآن إلا "العشرة فدن" في حضن الجبل.

وكان يستيقظ في الليل فزعاً يصرخ من لحم، فيرى وجهها، هو نفسه،وديعاً ساجياً، في نور مصباح الجاز تحمله بيدها، وتمسح العرق

عن جبهته باليد الأخرى، نور يأتيه في الظملة، باهراً كالنجدة، فينام ودفء صدرها يطرد الأشباح عنه حتى مجئ النهار.

وفي ليل طفولته كان يعرف أن دم الفراخ المذبوحة، والبط، الحمام الصريع، قد ينبجس ويرش رخام عتبة الباب، فلن تعود تجري وتنق وتلقط الحب في الحوش، تحت الزير، كان يعرف أن القطة التي يجدها في الصبح مقلوبة على ظهرها، منتفخة، في تراب الشارع، لن تعود لتموء، وتسحره، قبل أن ينام. وكان يخاف أن يموت أبوه، ويخاف أن يأتوا ليرفعوا إخوته من فوق التراب، لا يتحركون، فلا يعودون ليلعبوا معه أبداً. ثم ينسى ذلك كله سريعاً. وكان يعرف أيضاً أن أجية لن تموت، لا تموت، ولا ينسى. كان في دفينة حسه مكان لا نسيان فيه، فيه أمن معتم صاف وراحة نهائية، كأنه يلعب وحده تحت السرير في مكان لا يصل إليه غريب.

ساقاها عمودان من حجر أسمر دافئ، منحوتتان. وفي الحجر الوثير شرايين دقيقة زرقاء، نبضها يرتعش، لا يكاد، تحت يديه. في أصابعه حنان ملهوف، وشفتان تتمرغان في اللدونة المتماسكة، بروات ترتفع إلى غيطان الجسد الممتدة حتى الأفق. ويده تدور بالخصر الصغير الهضيم، تحت القميص الساتان الأخضر اليانع، تحدس هيكل الأضلاع القوية تحت النعومة. الخضرة في نسيج القماش المرفوع على صدرها، ينبثق منها النوار والأزهار، في خطوط متقاربة، ومستأنسة، وشامخة،

وعصية. عيناه غارقتان في أمواج الزرع، حتى مدى البصر، والهواء يحمل إليه رائحة الماء الذي يجري تحت هذه الأرض رائحة تراب مروي، حريفة ومنعشة.

وفي كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية، ملساء، على الجنبين، يحتضنهما. بل يحتضن جانبي العالم كله. العالم راقد بين ذراعيه اللتين تضمان كنزاً شاسعاً مستحيلاً، بربواته ووهداته الطرية. بين ذراعية صحراوات مقفرة خاوية، لينة، ومشدودة، ومتموجة، فوق صخر العظام، ملاستها تحت أصابعه، ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمس رغبة لا تطفئ، وليال ساطعة لا نهاية لها، من الانتظار والوحشة.

وهو يشق القميص اللامع الساتان، بعنف.

ويديه ترتفع إلى الجرح المشقق المتشعب الخطوط. عنكبوت مدموغ بخيوطه المتفرعة السوداء، مكوية، عروق حجرية غائرة في اللدونة المدورة السمراء.

كانت الصرخات الثاقبة تنوح في خواء السماء، متتالية طويلة، تنادي وتستنجد، والهواء قد خفت فجأة، وتخلخل. والأصدقاء تتردد، وتتضخم، بين الشوارع الضيقة وجدران الحجر والطين القديم. الليل كله يتدفق وينزف في هذه الصرخات،حاشداً بنذير غامض يدق على أبواب القلب. ثم جاء الصمت، وسقط كاملاً، مسدودا، حتى قد كان يسمع له صوتاً في مجرى دمائه، في موج مسارها الذي لا يتوقف.

وكانوا قد خرجوا من البيت، وراءه، على خطوتين منه، أولاد أعمامه، تاوفيلس، وجيصر، ومينا، خطواتهم تتباعد وتتقارب، وعلى

أكتافهم البنادق في العتمة، جامدين لا يهتزون في مسيرتهم، بإرادة لم يعد بوسعه شيء أن يوقفها. ليس في وجوههم إلا الجفاف.

كان الخبر قد جاءهم في أول الليل: أسرع، أجية سقطت مصابة في الغيط. وصرخت النساء ثم صمتن. قالوا إنها بخير، ولكن حسه أنذره أنهم يدارون عنه، قالوا جريحة فقط وإن لم تستطع العودة للبيت، ولكن حسه أنذره أن الجراح لم تعد من تلك التي يستدعي لها الطبيب، قالوا جاءتها النداهة وطلبت ماء، أو الذئاب، لا ندري، أو لعلهم عربان الجبل، ووثبت عليها، في عودتها إلى الخص، في آخر العشرة فدن، ولكن حسن أنذره بأنه هو الذي اغتالها وأسقطها، قالت له في الصبح إنها ستقضي اليوم في الغيط وتزور أهلها، وتسأل عنهم، عيب يا خوي أن تمر السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية، هؤلاء ناسنا وأقرباؤنا، والحريم ليس بوسعها أن تأتي إلينا هنا في البلد، حرام، وأنا أشتاق إلى مجلسهم والسؤال عنهم، أما الأولاد فيقضون اليوم عند أخوالهم، والأكل جاهز، والعيش طري، خبزنا البارحة، ولن أغيب عن البيت إلى سحابة اليوم، وليس للمرأة أن تغيب عن زوجها، صحيح، ولكنها سحابة يوم وأعود. ولم أكن راضياً، كنت أحس النذير، لكني سكت، سكت، في جبن، كان سكاتي عن خوف أيضاً، وتعلل بأكاذيب هشة، أعرف في صميمي أنها أكاذيب هشة، مهما بدت مقنعة: ليس هناك من بأس، هذه العصابات قد انقطعت عن الإغارة على العمار منذ زمن بعيد، وانصلح حالها، والذئاب؟ أين الذئاب؟ لم يعد في الجبل ذئاب تخيف

أحداً، وهم هناك قد قطعوا دابرها، ويستطيعون القضاء عليها بضربة فأس واحدة، أو ضربة من شمروخ، وها هي الآن قد سقطت، هل ماتت؟ ولم تجد نجدة؟ لم أكن هناك، كانت وحدها

– أجية .. أجية ..

لم يرد عليه أحد.

كانت أجسام الفوانيس واقفة، خضراء صدئة ممشوقة في الليل، تقبل إليهم وهم يسيرون في الشوارع المتعرجة، تلقي برك النور على بيوت الخشب البغدادلي، على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة، مصمتة ومشققة، على عروق التبن وآثار خطوط الأصابع البارزة في الجدران الطينية، على أكوام التراب وريش الطيور ونفاياتها الجافة، على الأوراق القدمية الساقطة على الأرض لا تتحرك، كأنما لا وزنه لها.

كانوا قد تركوا حدود البلد، وكانوا يشقون الغيطان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التي يهب عليها هواء الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب، وكان صوت المياه يأتيهم من الظلام، تنسرب وتخرخر في القنوات الضيقة الموحلة، شحيحة، صوت أنفاس صعبة في صدر عظمى شيخ، ولكنه عنيد.

كيف يمكن أن أتركها؟ في دمي هي، في عظامي، مجدولة بنسيج لحمي، التراب الذي في يديها عالق بجدران قلبي. وجهي لا يعرف له مأوى إلا على فخذيها، وتحت ثدييها.. هناك، هناك فقط، على أرض لحمها الدمثة بيتي، في تلك الخصوبة الكثيفة المزهمة. هناك تسقط عني

مخاوفي وعذاباتي، وأجد راحتي وأمني. وأجد عذابات أخرى في راحتي ومخاوف أخرى في أمني، هذا كل مالي من راحة وأمان.

نسج القميص وهو يشنق في السكوت المطبق صوت كنفث الفحيح المفاجئ.

وهو يدير وجهها إليه، وقد سقطت الطرحة من على السرير، وتموجت وهي تتطاير إلى الأرض ببطء مفروشة تغطي جانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على الكليم.. وندى من العرق الخفيف، يتفصد قطرات دقيقة، في زرقة النور البيضاء، يكشف عن منابت شعرها الغني الأثيث على الجبهة المدورة السمراء. وينهمر شعرها، في حريته الجديدة، أمواجاً وفيرة سوداء، على ملاءة السرير.

وهو يرفع وجهها النقي من على السرير، ويديره إليه ببطء، وهي لا تقاومه، طيعة، عيناها مفتوحتان، ويده ترتفع إلى الخد الممزق من تحت العينين إلى عظمة الذقن، بجلده المشدود، مجعداً، ضامراً، متقبضاً. شوهته ندوب كالشعيرات. متعرجة. جافة تسطع بنها، مساحات صغيرة نضرة، رائقة بريئة من كل شائبة، في سمرتها الحية الغضة المنعشة، وسط آثار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التي التأمت على شبكات من نغل دقيق صلب ومتجمد.

الجدران ساطعة خضراء ملساء.

وهو يغطي خدها براحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قاسية، يحس قلبه يتقبض من حنان لا يطاق، والأنفاص تنحبس في حلقه، وعيناه، على الرغم منه تغرورقان.

عندما خرجوا من آخر الغيطان، كان الرجال ساكتين، جالسين خارج الخص، أمام المساحة الضيقة التي تتعثر القدم فيها بالحصى والشقاف، ويختلط فيها الرمل بالتراب، حتى تأتي الأحجار الناتئة الهشة والصخور التي ترتفع إلى صدر الجبل. ومن خلال فتحة الباب، كانت الفتائل المشتعلة تدخن في كيزان المصابيح القديمة السوداء بجدرانها الصدئة الدهنية، وتهتز في الجاز العكر الثقيل،وتلقي أضواء وظلالاً متراوحة لها ذيول وتعرجات على الساحة الرملية.

وكانت لمة النساء متحلقة في الداخل حول بذرة موضوة في وسطها. وملابسهن سوداء، والطرح ساقطة على الأكتاف العظمية. وكانت تأتيه من بعيد أصوات لغط الكلام الحنون، وثرثرة المواساة والتهوين.

كانت حمرة النور تتوهج له من بعيد، داخل الخص، من مصباح الجاز الزجاجي الوحيد المشرق وسط فتائل الصفيح. بؤرة وسط الخلاء تحت الجبل. آخر عيدان الذرة في الغيط، محلولة الشعر تهتز في حرارة جنازة مظلمة، من غير صراخ. ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرجة صاعدة، مرتبطة متهددة، نحو سماء قاتمة الزرقة، قاحلة حادة الجوانب.

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب واقفين عند مقدم الموكب الصغير، وانفرجت حلقة النساء وابتعدن يلتصقن بالحيطان الطينية في داخل الخص الضيق المزجحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقدور. طيور ليلية داكنة تهرب إلى الجدران وأجنحتها ترفرف وتصطفق، أصواتها تهبط إلى صمت قلق، وعيونها لامعة، بعد آخر دفقات الزقزقة والنقيق.

كانت عيانها واسعتين، سوداوين، في النور المحمر، بهما نظرة ثابتة حارة. وكانت ساقطة، في هدوء كأنه الراحة، على بطانية في لون البن المحروق، مطوية فوق الحصيرة الرثة، وكانت تخفي نصف وجهها بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذي يتنهي بشراريب ملئية دسمة بخيوط الحرير، تسقط على صدرها. انحنى، وأزاح الشال. كان الدم المغسول بمياه عكرة قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من التراب، على جانب الوجه الصافي. كان أنفها الأشم متوتراً، وشفتاها الرقيقتان لونهما أبيض في النور، مزمومتين على سر لن تبوحا، وفستانها الأسود ممزق، منهوش، وقد تصلبت مزق النسيج بالدم المتخثر اليابس، تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها اللامع ولمحات ندوب جراح طويلة مشروخة في اللحم المدوم الأسمر الغض، على الصدر الناهد، وقد نفرت على روته تورمات زرقاء مفاجئة، مشقوقة في وسطها بخطوط الحمرة الداكنة.

كانوا قد تربصوا خلف الخص، وسقطوا عليها، على هذا الحصير. كانوا ثلاثة، أو أكثر. وكان النخل، في رأس الغيط، تحت الجبل، هو

الشاهد الوحيد. كان المغرب أحمر، يزرق وينطفئ، ويتهدم وراء الخصور القيلة الارتفاع.

كانت الأذرع قد أحاطت بها، كثيرة، وثيقة صلبة، كالكلابات، وسقطت تحت هجمة السيقان. كانوا قد أسندوا بنادقهم إلى الحائط. تمزقت تحت اندفاع صخر وحار. هل صرخت؟ أم كانت غائبة. نعم، وراضية.

كانت قد انقضت مرة واحدة، متزاحمة بأجسامها القضيفة. لم تكن تنبح، بل كان لأنفاسها كرير عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف وعيونها شعلات صلبة. كانت تدور حولها، وتفترش لحمها. كانت المخالب تخمش الأرض الطينية، تحفرها، في احتكاك له قشعريرة. وكانت تحس انسحاب المخالب وحادة باردة، على خدها وصدرها، صاعدة هابطة، تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة. كانت الأيدي المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد في خطوط متقاطعة، والأنياب الطويلة العاجية المبلولة تنزل مرة واحدة، وتغوص، والشدقان مسحوبان إلى الوراء، واللهاث الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التي لا تطاق.

كان في الخص، في حرارة الليل، نفث كأنه من رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة. رائحة أتته من ليالي طفولته، عندما كان يستيقظ فجأة دون سبب، وينادي: أمه، أمه.. وهي تعجن في صمت الليل، وصوت العجين الطري يصطفق. وكانت قتوم تغطي القصعة

بالملاءات النظيفة، والبطاطين، ليتخمر حتى الصباح. وتأتي إليه، تسقيه، وتلف حوله الغطاء، وهو يرى في نور حلم مهتز وجهها الأسمر الساكن الصبور.

عيناها شاخصتان إليه، ورأسها على البطانية، وشعرها قد تشعثت منه خصلة سقطت على الحصيرة الصفراء، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور، متورماً مرضوضاً، وشرايين حمراء مشرجة قد نزلت على صفحة الجلد المغسولة.

العذراء وقد سقطت. أين كان ابنها؟

– قدر ومكتوب، ما باليد حيلة.

– كيف؟ كيف أمكن أن يحدث؟

– من يصدق؟

– كانت وحدها يا أختي. يا عيني.

– أمر الله ومشيئته.

– ما استطاعت أن تفعل شيئاً.

– ياختي .. يا ضناي.

– وماذا يجدي الكلام الآن؟ مشيئة الله.

– كيف جاءت هنا وحدها؟

– أختنا وحبيبتنا، كنا معها، قلبنا معها.

– كيف حدث إذن؟ كيف أمكن أن يحدث؟

– أجية.. أجية..!

وهو يحتضنها بقوة، بين ذراعيه، في شبق الحنان، ويدفع وجهها إلى صدره، يخفي جرحها. شفتاها تحت ذراعه، تتلمسان صدره بقبلات صغيرة سريعة، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفر في أذنيه.

كانت المرأة قد نادت عليها، في أول الليل، وكان صوتها شاباً، ومبحوحاً. واقتربت من الخص. كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوي، أسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها، وفي يدها عود حطب، وكانت وراءها ثلاث عنزات تغثو، وترفع رأسها إلى الجبل. كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل، فيترك خطا عريضاً، وكان الجبل رمادياً، وأعواد الذرة صامتة، متزاحمة ومتلاصقة، شاخصة في نقش مشعث حجري، عليه رواسب من التراب.

ومدت المرأة يدها إليها، في حركة دعاء واسترحام.

– عطشانة يا ستي.

وعندما اقتربت منها، كان وجهها ناحلاً، تحت العصابة العريضة الداكنة الحمرة التي تدور بجبهتها، وكانت شفتاها ملحيتين موشومتين بالأخضر، والحلقة الصفراء الكبيرة معلقة بأنفها. وكانت وسوسة الحلى الصفيح على صدرها، في الخلاء، مكتومة تحت الطرحة الثقيلة.

– عطشانة يا سيتي. اسقيني لله.

بصوت لأنه له قلبها فجأة.

كيف نسيت؟ كيف تركتها تقترب؟ كانت الأمارات كلها هناك، وكم من مرة سمعت الحكايات، في كل القيعان والبيوت؟

كان في عينيها تضرع القطة، وفي مشيتها المتمهلة، على الرمل انسياب ناعم، وكان كل شيء ساكناً، لكنها تحس مع ذلك نبض الترقب حولها، ولهفة الترصد ولا تملك أن تغير شيئاً.

عادت إلى الداخل، ورفعت جالوص الطين الذي يغطي البلاص وغمست الكوز في مرآة الماء المصقولة. كان في بقبقة الماء وهو يلين، ويتكسر ويملأ الكوز، ما يريح الصدر، ويجعلها كأنها تبتسم، مسحورة، وأخرجت الكوز مائلاً من الفوهة المدورة، وهو يشر بالماء البارد، واستدارت لتسقي المرأة.

احتضنتها النداهة، فجأة، وأحاطت بها، وسقط الكوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة، وينسكب على الحصير، لا يهتم به أحد، ووجدت نفسها في قبضة عناق خانق، راشحة الجلباب الأسود المترب تكتم نفسها، وهيك لامرأة الجاف يضغط على جسمها، والحلى الصفيح مغروزة في صدرها، تؤلمها. واندلعت النار في وجهها. كانت المرأة تقبلها بشفتين من الشوك، قبلات حادة لاسعة. ثم انتزعت النسيج من على صدرها ومالت تقبلها في خشخشة الثياب السوداء الثقيلة التي التفت بها من كل جانب، قبلات كاوية متلاحقة. وقد انبثقت نافورة من الألم تتفجر على ثديها، وتترك آثاراً رفيعة ثاقبة تنشعب كالبرق. فتحت فمها تصرخ، فاغرة. هل صدر عنها صوت؟ هل حدث شيء؟ كان كل شيء حولها مقفراً، موحشاً، وليس هناك غيرها. وقد سقطت على الحصير. كانت تسمع الجرال يتنادون ويجرون من بعيد. قادمين إليها

بنجدة فات أوانها، وكانت النساء تصرخ. لم تكن هناك أعرابية، ولا معيز، لا شيء، إلا عارها جراح كأغصان النباتات الشوكية التي تنبعث من أحراش الحلفاء، وعلى حواف الترع المشققة من الجفاف. حزمة كاوية بها عقد والتواءات، مدببة الأطراف، متقاطعة ومتداخلة على صدرها وخدها.

وهو يغطيها بجسمه، كأنه يحميها من عريها، وعارها. يتلقي عنها، بعظامه وبعضلاته الموجعة، ثقل النور، في سجن الجدران اللامعة، ويدرأ عنها غيبوبة. ترك لها صدره تغمض عليه عينيها الجريحتين، وتلصق به خدها المحفور، وصدرها المتهك. يدخل معها في منطقة حميمة خاصة بهما معاً، مغارة تتقطر فيها أشعة خاطفة، في قلب صخر من النور الرازح.

قديستي المستباحة..كيف امتهنا؟ كان يقظاً في ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب النافذة، وينام إلى جانبه، وجهها فيه سلام، وفمها مفتوح في حلم منعزل لا صلة له.

وكانت أطرافه كلها متوترة في قلق متوفز كهربي، ترتعش له الأعصاب، دون أن يردها، تفجر العويل يملأ سماء البلدة عليه، في صراخ ملحاح ممتلئ الأحشاء بالخوف، تتردد له أصداء ثقيلة، برك من الصوت، معدنية، تنداج من جوف جرس ضخم، وتتسع على صفحة الليل،تحمل تهديداً يحيط بكل شيء. وصمتت البلدة كلها، حبست أنفاسها، وسمع وشوشة النخيل في حوش الكنيسة.

وتقبلت أجية وتمتمت في نومها:

– من مات؟

وفي عتمة الغرفة رأى على السقف الأبيض صرصاراً داكن اللون، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية وهو يسير، في عمى، إلى وجهة مقصودة.. وانطلقت صفارة القطار من المحطة، متصقة، متطاولة، تجلجل في نفس واحد لا ينتهي، تبشر بالخلاص، والعجلات تقرقع منطلقة إلى بعيد، فوق الجسر، حتى تقلب الرعد الحديدي الليلي وانتهى إلى مطر خافت يتقاطر في فراغ الحقول.

وعاد الصمت موحشاً، يملأ السماء، تنفتح له في النفس فجوة شاسعة بلا قرار. وهو وحده، بإزاء الصمت، يحس صهد الحرارة في وجهه، جسمه ينتفض بالعرق، وأطرافه ترتجف.

يا حبي، كيف امتهنوك؟ كيف امتهنت؟ كيف سقطت؟

أبكي، كالطفل.

كيف أبرأ؟ وتبرأين؟ بكاء السقوط يا حبي، والامتهان. كيف تجف الدموع؟

وفي الغد لم يكن يجرؤ على أن ينظر إلى عيون الرجال. سقطت، لكنها طاهرة. مغتصب، بل داعرة، شهيدة، وضحية.

– أجية .. أجية ..

كانت عيون الرجال متباعدة، لا تبوح بشيء.

كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيها، وكان صوته هادئاً، محبوساً.

كان الرجال قد انطووا وحدة داخلية. عزفت النفوس عن الالتقاء.

منذ متى جاء هذا البرد؟ وتفككت الظملة؟ كان الرجال قد ناموا على الحصير، وبنادقهم إلى جوارهم على الأرض. التفوا بالجلاليب والشيلان والبطاطين. في الخص الطيني الضيق كثافة النوم، وأصوات الأنفاس الثقيلة المكتومة، لم يطلقها النوم من الحبس.

وعندما خرج، وتركهم نائمين، كأنما يودعهم في حنان، كانت حقول الذرة، في النور الأول للنهار، مبلولة من الندى، ونواصيها مثقلة محنية بالماء، لا تكاد تهتز في رعشة البرد التي سرعان ما انجابت. كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه ويجف من دكنة الطل المخضلة. تطيرت شبورة الفجر سريعاً، لم تبق منها إلا نفثات خفيفة بيضاء تتلوى وتذوب حول عيدان الذرة.

كان ذهنه خاوياً، صافياً، وقدماه تسيران به، وحدهما، بين الحصى والحجر، إلى طريق الجبل.

والسماء مشدودة، سخنة، والشمس قاسية في عينيه.

وتحت أظافره حبات رمل دقيق مغرو. وهو يضع وجهه على خدها، يحس شقوقه الجافة، ونضرته، وقسوته.

أنت تقتلينني.

القاهرة

٣١ مارس ١٩٦٩

في الشوارع

كانت العينان اللتان تنظران إليه قاسيتين، معاديتين، يعرفهما طول عمره. تواجهانه، بصمت، من غير لغة. ولا يريد أن يرد عليهما.

وكان مس الموسي ينزلق على صفحة وجهه الغارقة في رغوة دمثة. معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على الجلد، احتكاك الموسي بوجهه ناعم نظيف مريح.

وفي الحمام هدوء ضوء الصبح النائم، ويأتيه فحيح البوتاجاز خافتاً من بعيد، تحت ماء يغلي في أمان، وقد انجابت فرقعة أتوبيس المردسة من قليل، وذهب يحمل الأولاد وهو يعوي بزمارة دعية صخابة، ويرتج لمروره زجاج البيت.

ربنا يستر. لعله لا يطلع عليهم في الطريق وتحدث حاجتة..

هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل، ولكنه، بشكل ما، ينعمه ويصقله ويغطيه، لا يذيبه ولا ينساه ولا يتجاهله، بل يقبله

ولكن يدفعه بعيداً تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من أنه لن يحدث شيء.. وماذا بوسعه أن يفعل؟ كل الناس تتكلم، ولكن الصحف والإذاعة والتليفزيون لا تقول شيئاً، بإصرار. لا أحد من معارفه أو أصدقائه أو أقربائه رآه رأي العين، أو سمعه بالفعل بأذنه. كل الناس سمعت من مصادر ثقة، كل الناس عرفت من أصدقاء وأقرباء لا يمكن ولا مصلحة لهم أن يكذبوا أو يروجوا إشاعة لا أساس لها. سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الأمر، ولكنها تحرص أن يكون ذلك من غير إعلان، حتى يأتي اليوم المشهود.. وهو لا يكاد يصدق، أو يصدق. ولكنه لا يعتقد أن الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة. قد يكون صحيحاً.لعله فعلاً يمر بالشوراع، هناك، بعض الوشارع،ولعله فعلاً يهاجم الناس، ويقع المصابون، ما من أحد رأى شيئاً حقاً. ولم يظهر في طريقه على أي حال، ولا طريق الأولاد إلى المردسة.

صحيح أنه التقى، بمحض الصدفة، باثنين أو ثلاثة من معافه القدامى. وكانت الأخبار قد ترامت غليه أنه اعترضهم في الشارع، وأن شيئاً ما قد حدث، أصابتهم جراح، ويقولون عنهم يحملون آثار تشوهات. لكن لم يكن يبدو عليهم شيء، لا أثر لجرح، أو صدمة. لعلهم يحسنون إخفاءها.

كانوا حريصين على أن يظهروا بمظهر طبيعي جداً أكثر قليلاً مما يمكن لك أن تنتظر. وسلم عليهم هو أيضاً،بحرارة أكثر قليلاً -قليلاً

جداً –من المعتاد، وتبادلوا التحيات والمجاملات وأنهوا ما هم بسبيله، وانصرفوا. لم يشيروا إلى شيء ولو من بعيد، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله. هل في نظرتهم شيء بعيد، غائب، أو مكتوم؟ ربما كان هذا كل ما في الأمر. وهم يستحقون ما وقع لهم على أي حال –إن كان قد وقع لهم شيء. لما ذا يتصدون له؟ لماذا يخرجون إليه؟ ما لهم هم؟ فإذا كانوا قد ذهبوا إليه،في سكته عمداً أو عن غفلة، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم، من الأول. ونالوا جزاءهم على كل حال.. كانوا إذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة، أو استحقوا ما يجري للغافلين، ماذا حدث لهم؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة إلى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة؟ ماذا يمكن أن يحدث – على أي حال – في الشوارع الصيفية الغاصة المحرقة المتراكبة بالحر والزحمة ؟ بين الأوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة، والبيوت القدمية جففتها الشمس واغبرت بتراب خفي عنيد صفحات وجوهها الذابلة المتساقطة الجلود؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التي لا تنتهي بالجلاليب والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات، بالجزم والبلغ والصنادل والأقدام الحافية، أمام الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعثة الحمولة، بين عساكر المرور بعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة في الملل والعرق، على الأسفلت المشقق، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوراع، والخضرة المصفرة الساقطة، وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة، بين أكشاك

السجاير والبضائع المستوردة، والكتب والمجلات الملقاة على الرصيف، بين الأنوار والصفافير والسيارات اللامعة، والتاكسات المكسرة، والعربات الكارو والتراموايات وعربات الفاكهة والفجل والجزر؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم، أن يكون قد فعل بهم، في الشوارع، في وقدة الشمس العارية البذيئة وفوانيس النور وإعلانات النيون؟

كانت دفقات الماء الفاتر تنصب على رأسه ومؤخرة عنقه، يجمعها بين راحتي يديه من تحت الحنفية، ويطس بها وجهه، ويلقي بها على رأسه، فلا يسمع الشلالات الصغيرة المفاجئة، وهو يشهق باستمتاع، وعنف، وجفف وجهه كأنما يكحته،كأنما يريد أن يمحو شيئاً لا يرى ولا يمحى.

كان الأوتوبيس الضخم ينطلق غاصاً بالناس ولكن صامتاً، على حافة النيل، وقد فتح الشباك إلى جانب وجهه، وساقاه مرتفعتان في وضح حرج، قدماه على الاستدارة الحديدية النابئة فوق العجلة الأمامية، ناعمة، مكشوطة بان صدؤها، الزحمة قد تحولت الآن غلى نوع من العجينة الثابتة الرخية، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود وصراعات الوقوف والتحرك، وقطع التذاكر – أو التهرب منه –اصطياد المقاعد والبحث عن مواطئ مريحة للأقدام. وفي داخل الكتلة الضخمة المندفعة كأنما رغماً عنها، لا تملك أن ترد حكرتها، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة، بل مريحة، من التماس الوثيق الحميم بين الأجسام التي همدت – في توتر متراخ –وأمنت لحظة من لجاجة شد وجذب لا ينتهي وأحاطت

بها جدران ملفوفة، مصقولة، توحي بالاطمئنان في قوتها الذاهبة إلى غرضها لا تحيد، هشة ولكن مفتولة الذبذبات محمة الرقائق، بين زجاج النوافذ السميك المترب الشفافية، والمقاعد الجلدية البلاستيك اللامعة من احتكاك الأجسام العرقانة، والأعمد النيكل الرقيقة المدورة. والأرضية، تحت الأقدام، تهب وتنزو وتنحط في انسياب متموج يقترن بأرض الشارع ويسيطر عليها بثقة. وقد امتلأ الأتوبيس بهدير المحرك والأنفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذي استقر، إلى نوع من الرضى والقبول –ما أندره ! –بين الناس بعضهم بعضاً.

وهواء النيل يدخل إليه، فجأة، من على صدر المياه الواسع العريض، فيغمض عينيه، ينفحه الهواء بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى، كأنها صوفية، وكأنه لم يكن قد أوى إلى ذخر من التعلات، وذكاء الحيوان الذي يريد أن يتشبث بالحافة، ولا يقع.

في وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير أسود، يبدو من بعيد مشققاً أعجف، قشة ضيئلة نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط، في رفق. ينبثق منها شراع أبيض مفرود شاهق الارتفاع ممتلئ بالهواء، روح قوية عريضة الجناح تشق طريقها بتوق ووجد إلى السماء الباردة الزرقة، يحملها جسم هزيل خشبي ضامر تعلب به موجات صغيرة وسط تيه شاسع في سهل المياه الرمادية.

وتحت عينيه شط النيل ينحدر إلى التفافات كثيرة محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص، ورقعة صغيرة ممهدة مزروعة، على الشط،

بأعواد صغيرة من الذرة المهدلة الشواشي، وخص صغير مكسور من الخوص والطين الجاف، لا باب له، وعلى الشط الآخر اهتزازات نور الصبح، بلا صوت، بين حيوانات غامضة أليفة قاتمة الخضرة من الأشجار اللفاء العجوز والبنايات المرتبة المنسقة، طهرها بعد المسافة والضوء المائي من وحشيتها، وروضها، وغسل عنها سوقية الحسابات العارية، لانت واستكنت، في نوع من اللدونة الطفلية تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخصرة وقتامة ماء النيل.

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة، كاشطة، تنوح. لف الأتوبيس على الشط لفة واسعة، سريعة جداً، ومالت الكتلة الضخمة، في هدير المحرك الذي يئز في ذعر وغضب معاً، وأحس العجلات تحته تخرج عن حافة الأسفلت الصلب الأمين وتثب، في رجة تهد العظم، فوق بلاط الرصيف وتحتك، متشبثة، بتراب الشط الهين القوام.

واندفعت من جانبه سيارة نقل، تكركر في ثقل، وفراملها تعول أيضاً في صرخة بطيئة، وأطراف حمولتها من أعواد الحديد الصدأ الناتئ تكاد تخترق زجاج الأوتوبيس، وكتلة الأوتوبيس تنزل على الجسر الطيني، منحدرة بمقدمتها العريضة إلى أسفل، وتدخل تحت كتف من جرف بارز، مجوف، عريض. الأرض، تحت العجلات التي تدور سريعة تتلمس النجاة والحياة، لزجة رخوة طينية لكنها تحتمل ثقلها، حركتها الدائرية الجارية تهبشها في استماتة، وقد انحشر سقف الأتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتة تخمشه في خشونة ولا تنشدخ مع ذلك، وتمر غيامة

خاطفة من العتمة، في الفجوة القريبة من النيل، ولم يعد في العربة إلا لحظة صمت كاملة، كأنها الأبد، من غير أنفاس، انجابت فجأة كما سقطت فجأة، والسائق يدور والناس تهتف وتصرخ وتميل وتترنح، أذهلتهم المفاجأة وهبت صيحاتهم ودعواتهم الملهوفة، ملء عيونهم تقلبات متعاقبة من الأرض والماء والأسفلت والطين المتاسك، والسائق يغير السرعة في حمى البحث عن الخلاص، واليقظة الحادة، ويضغط على البنزين، ويرتفع الأتوبيس برجمه الثيل وقوته الدافعة إلى أعلى ويصعد وتتشبث العجلات الأمامية بثبت جديد في منحدر الأرض المرتفعة وتزحف مندفعة إلى فوق، على أرض تهدد كل لحظة بالانهيار ولا تنهار، ويتشمم خطم الأوتوبيس الأرض المرتفعة ولكنه لا يمسها، ينشق منها نفس حياته ورائحة التراب، ويشهق، شهقة واحدة متقلبة الزئير، يزوم في هريره الممتلئ الصدر، ويزحف إلى أعلى، باستماتة، والعجلات ترتفع على أرض لا أفق لها، إلى حرف السماء تتوغل صاعدة على جرف لا يسقط ولكنه لا يصل إلى الأمان، في نفس اللحظة التي تدمدم فيها رؤس الناس تحت ضغط الطين الجاف، وتقوض جرف هش من كتل التراب الجامدة على شط، وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع منها رشاش بطيء، موسيقى الحركة، لا شأنه له بشيء، وهناك، وقف من بعيد، على الأفق الشاهق الارتفاع الذي لا تصل إليه العجلات في دورانها المتامسك الحرج المصمم الملهوف، تحت صفحة السماء، بإزاء خلفية العمارات الملونة بالبني المنور الأزرق الكبريتي الكابي، هناك،

وحدها، متميزة قاطعة الحواف، عربة تين شوكي، على عجلاتها الخشبية الدائرية الرقيقة الفروع، أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها السماء، رقيقة مشعة من المركز، منفرجة من بؤرتها الكنورة الصلبة، في موسيقى هندسية ثابتة، وأكوام الحبوب الشوكية، عالية، غضة بعصارتها، نباتات عصية وكثيفة الغنى، لا تبالي، تحديها لا رد عليه، وبجانبها صفيحة الماء تومض بشعاع لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه.

عندما دخل إلى ميدان التحرير آتياً من اتجاه كوبري قصر النيل، في نور الصبح العاري الثقيل، ومازالت قدماه غير متوازنتين قليلاً، لا تكادان تستقران على الأرض، ورفع رأسه ليعبر الطريق، سمع صوت النافورة لأول مرة،واضحاً في الشمس، والمياه تسقط على الرخام المفكك المتآكل، وحفيف التراب في أوراق الشجر الجافة.

كان الميدان، تحيط به شوارعه المسفلتة، وتخترقه ممرات ملتوية وفسحات من الخضرة الناصلة، خاوياً. ميدان في وسط بلد ريفي، وباينات المجمع، والمتحف، والعمارات القديمة، من ناحية، رازحة كلها، وقصيرة، ومفلطحة، بهائم ضخمة كسول حول الجرن، مدت كتل اقدامهاالعريضة ودفنت رؤوسها في كومة عظامها الساقطة، الهامدة.

ومن الناحية الأخرى اقتحام الهيلتون برشاقة لا حياة فيها، سوقية جدران مصقولة حادة ملطخة بمساحات مقطوعة من الألوان الجارحة. مياه النافورة تعلو، في همة، وتقع، متناثرة القطرات على الحوض المكسور. والمماشي الترابية المتعرجة، خالية، عليها أوراق ممزقة يتطاير بها هواء

مسف مترب. خلية الأتوبيسات الحمراء تموج بنحل ثقيل قذر، تطن ببطء وتزاحم، لا تدور حول مركز إشعاع تنسرب في الشوارع من غير وجهة. إعلانات النيون حمراء زرقاء تومض وتنطفئ، تسطع باهتة في النور الجامد المحايد، لماذا أضاؤوها في نور الصبح؟ وظلال الناس القاتمة في المشمس، تسير في غير سرعة وفي غير بطء محنية، يحسها قامات سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة، في وسط اشعاع رازح شامل، تختط طريقها إلى ركن الحيطان وأمن الأثاثوالكراكيب والمكاتب والسراير الرثة.

ومرت من أماه، كأنما تأتي من عالم آخرو دراجة مسرعة رشيقة يدور بها صبي جنايني،ويستدير عسكري المرور ليفتح لها طريقاً خاوياً لامعاً أسود ليس فيه غيرها، وخلف الولد، على السلة الحديدية المعلقة بالدراجة، أكوم شاهقة من الأزهار الأثيثة المكتنزة الحسد، طريقة غضة، يتدفق غنى ألوانها في النور وفي لدونة لحم حي وثير، ورقته. مقطوعة، ملفوفة إلى بعضها البعض بخيوط خضراء من أعواد نبات، أشرطة حمالات تحز في بضاضة البياض وفي نداوة الألوان الوردية وتحدي الحمرة اليانعة وكثافة الزرقة المليئة بالعصير، خطفت أمامه وابتعدت، في كل مددها الحيس. كأنما غرق في لحظة في طيات جسد امرأة باذخة، في لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة.

كان الجرم الصغير الوديع، بسنامه الصغير على ظهره، يأتي يمينه، من ناحية باب اللوق، بين سيارات قليلة متباعدة، تنحرف وتختفي في الشوارع الجانبية، تتجنب الميدان، وتنسل من تحت اللوحات الخشبية

الضخمة ملصقاً عليها إعلانات الويسكي والسينما الورقية الممزقة الأطراف. وتراءت له قبلة شرهة بذيئة فاغرة فاها، لا تتحقق أبداً، بين وجه رجل بنفسجي كامد مخطط، وامرأة راقدة حمراء عارية الساقين تأكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة.

اقترب من الشارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم، طويلاً، بارز الأسنان في وجه أسمر نحيف العظام، ووقف بجانبه، ينتظر غشارة المرور. كان الطريق مفتوحاً. هادئاً في قميصه الأبيض المشمور الأكمام، ذراعاه مسترخيتان، تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر، في ساقية رشاقة توحي بقوة خفية، بمقدرة خارقة على القبض والتملك، في قدميه حذاء تنس من قماش حال بياضه إلى سمرة.

أحس برغبة أن يقول شيئاً فالتفت إليه، وقال بجد:

– لماذا لم يضربوه؟

– لا بد أن يأكل.

– لا بد أن نأكل كلنا، ونعيش.

– الجو حر.

– أول الصيف. الحر مبكراً.

– سنعود بالليل لبيوتنا.

– وأين بيته؟

– لا بد أن يسير المركب. سواء كان النيل هادئاً أم غير هادئ.

– سيأتي الليل أبطأ من السفينة. هذا كل شيء.

التفت فجأة، فرآه. لا يتحرك،قريباً منه في وسط الطريق. وحده.

كان ينظر إلى الرجم الضخم من اليمين، بعيون عاقلة وشرسة، يتربص، دون أن تختلج فيه عضلة.

لا يصدر عنه صوت، لسانه العريض الأحمر المحبب، مدلي من فمه، مبرد حي مشحون بطاقته، ساقط من تحت الأنف الضخم المفلطح، أقدامه ثابتة لينة على الأسفلت الأسود، جبهته المرقطة مدورة، هابطة، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه، كأنه نصف مغمض، مرهق من السفر، هادئ يعرف سيطرته ينظر بثقة لحظته، وكأنما تخلخل الهواء من حواليه، وفرغ، ملأته شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديد.

وأحس صدره يضيق. ألم غير مستبين لكنه موجع وضاغط يقبض على عظام ضلوعه، بخفة لكن من غير أن يفلته، ويتهدد، وتتركز له نقط حادة في مكان قلبه.

ما زال يخب في فسحة الميدان الواسع،قادماً إليه، شامخاً في كيانه البطيء الناسي بنوع من الرشاقة المهتزة الثقيلة، ينظر من عل إلى الأمام، في غير مبالاة.

سمع صوت الهرير العميق الأجوف الخشن، يتردد ويتضخم، وإن كان ما زال في طبقة تحتية مدفونة، يملأ سكون الميدان الذي تتناوش صمته أصداء خافتة من نفير سيارات وصلصلة ترام بعيدة، وحفيف النافورة.

سوف يثب الآن، وينقض عليه بمخالبه المشرعة الثاقبة الممزعة، وسوف تسقط كتلته المدمرة بهجوم مندفع لا يوقفه شيء، بحيوية خاطفة لا راد عليها، وينطلق الزئير في نشة الهجوم، وتنشب الأنياب المدببة في العنق الطويل. سوف يختلط الخوار المفزع الشاكي الأجش، بزمجرة النهش والتمزيق المتقطرة دماً. ويسقط الجرم الشاهق على الأسفلت، تحت دفعة الوثبة المنقضة عليه، ولكن تتشبث به، لا تفلته، السيقان القوية القصيرة القابضة بكلاباتها العظمية النافذة إلى مخابئ الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التي لا منعة فيها.

سوف تصطدم السيقان والأذرع والضلوع، وتصطرع الأجسام، وترتطم أعمدة العظام، بلا عقل، في شراهة الخطف والهبش، في التطام التخبط والتصادم، في تصمم الكسر والهصم، بين تهشم حجارة الحياة المنقوضة، وضجيج الأحشاء المكنونة مكشوبة فجاة للنور القاتل، بين صرخة النصر وحشرجة التشبث بالهواء الواهب للحياة.

كان ينهج، وهو يصطدم بالناس، ويهتفون به، يمرق بين السيارات وعربات الكارو المتزاحمة، وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة، ويهبط سلالم متربة بين جدران ضيقة متربة، وتصفر خلفه عساكر المرور، وتنحرف الدراجات عنه وهي تقرع أجراسها دون توقف، ويتراجع الناس أمامه وهو يشورون بأيديهم ويزعقون به.

كان قد رآه. التقى به، وحده. وفي قلب الميدان. وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث. ما يحدث بالفعل. وهو أيضاً لن يقول لأحد أبداً.

لكنه عرف أيضاً ماذا عليه أن يفعل، منذ الآن. عرف بقلب واجف قلق ما يجب أن يفعل، هل يستطيعه؟ هل يستطيع أن يقوم بالمهمة التي قرأها في العينين العاقلتين الشرستين؟

كيف وصل إلى الغورية؟ لم يكن في ذهنه إلا صور متعاقبة خاطفة من التراموايات والناس، من الزحمة والعربات، في مطاردة أفلت من قبضاتها المفاجئة المتهددة، من صرخاتها وعجلاتها القاسية، أنفاسه تقتلع من صدره اقتلاعاً. لن تعود ساقاه، بعد قليل، تقويان على احتماله والاندفاع به، جرياً. الأرض تشدهما إليها، وصدره شق ضيق جارح. لكن ذهنه هادئ، في بؤرة ثابتة من حرارة ساطعة، يعد عدته لصراع لا يعرف أين يحدث، ولا كيف يخرج منه، ولكنه يعرف أن سيذهب إليه طائعاً، أو برغمه، ويخور قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه، لا يسلم أبداً بها، ولكنه يعرف أنها محتومة وضرورية، أيا كانت، ويرعف أنه، طائعاً أو برغمه، سيخوض غمرته.

العينان القاسيتان تنظران إليه، من عمق شفاف أجنبي عنه، ما زالت معاديتين. ولا رد عنده.

كان مسنداً ظهره إلى الكرسي غير المريح، يرفع رأسه إلى الحائط القديم، وضلف الشبابيك السوداء. كان الحمام يدخل ويخرج، برشاقة بطيئة هادئة، من أقفاص الجريد التي تحيط بها أوراق اللبلاب، فوق جدر القهورة البلدي. وقد صفت الكراسي في مفرق الطرق على الأرض المفروشة بالرمل المبلول. وقدة الظهر قد خفقتها الظلال المتراوحة على

تعريشة العنب الممدودة،سقفاً أخضر مثقوباً في أرابيسك غير منتظم، فوق الشارع، على أعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار. وجاء الصبي بإبريق الشاي المعدني الصغير الأزرق المدور، لم يعد يرى مثل هذا الإبريق كثيراً. يذكره من طفولته. كان إبريقه، لا أحد آخر يشرب من الشاي.

شاي طازة جديد، وكب سخن ثلثه ماء سخن، وملعقة صفيح غارقة فيه، وسكر في منفضة سجاير زجاجية مضلعة. هذه قهوة نظيفة، معتني بها، حسنة الإضاءة.

-أهلاً وسهلا. شرفت المطرح يا فندي.

-أهلاً بك. الله يشرف مقدارك.

- نورت الغورية.

- منورة بيكم وبالجدعان.

- رايح القلعة إن شاء الله؟ خان الخليلي؟

-أبداً والله. مشاغل.

- ربنا يعين.

- سمعت الأخبار؟ ماذا حدث في الميدان؟

- هل حدث شيء في الميدان؟

- أنا أسالك ماذا حدث في الميدان؟

- ماذا تريد أن يحدث في الميدان؟

- الساعة عشرة الصبح؟

– ماذا يمكن أن نفعل؟ لا بد أن يمر الواحد من الميدان، في الصبح أو المساء.

كان الرجل يستمع إلى الحديث. وقف على الناحية القريبة، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعة، يديره في الكوب ليطهره –أليس هذا هو المفروض أن يفعل؟

وعندما ألقى بالماء بعيداً عنه إلى الأرض المفرشة بالرمل، كان الرجل ينظر إليه، دون ابتسام، عارفاً. وجهه الداكن مغلق، عيناه مدفونتان وليس فيهما مكان للرحمة. عظامه متينة، فيما يلوح، تحت القميص الرمادي المفتوح خارج النبطلون الأسود المكوي، فمه المكتنز، بشفتيه السوداوين تقريباً، الشهوانيتين، كأنه على وشك الابتسام. لم يبتسم.

– هل حدث شيء؟

كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل.

– اتفضل الشاي.

– آه. الشاي. الشاي هنا عظيم.

– أصيب أحد؟

– لماذا؟

– في الميدان.

–الإنسان دائماً مصاب.

– لا. لا. أبداً.

سقط نور الشمس، مخففاً، من بين أغضان التعريشة، على الوجه الداكن. هل هي ابتسامة؟ أم لعب الضوء بعينيه؟ رشف من الشاي، ما زال ساخناً، وضع الكوب، على رخامة المائدة المدورة، ببطء.

ولم يرفع بصره من الأرض.

على الرمل المبلول المسوى، واضحة، قاطعة الوضوح، آثار أقدام أربعة، مفلطحة، غاصت في لدونة من الرمل من ثقل كتلة الجسم العريض، تنتهي كل قدم بغرز عميقة في الأرض ومدببة الغور. المخالب المقوسة، على بعد خطوتين من عينيه.

وظلال الأوراق ترتعش بين استدارات الضوء الصغير المهتزة. جاءت أصوات خبط ودق معدني بعيد -دكان سباك، أو ميكانيكي سيارات، سروجي على الأرجح، لا بد أنه سروجي سيارات، السروجية لا تحتاج مهنتهم إلى خبط ودق، مبيض نحاس، نعم، أوصائغ، ربما، أو بياع البسبوسة تحت المئذنة العتيقة، أمام منصة حلواه اللينة الندية بالعسل السريعة العطب جنب أحجار الجامع السوداء الألفية. وارتفع زقاء ديك، طويل في همود الظهر المبهم، ينادي الفجر. وتكرر صياح الديك في السكون، مرة أخرى، ومرة. لم يرد عليه نداء آخر. وحشة هذا النداء لا تطاق. كل شيء يغمره سلام. وصمت. القهوجي على النصبة، في الداخل المعتم الرطيب، يغسل الأكواب ويضع الصواني الصفراء التي تقطر ماء بعضها فوق البعض لها قرقعة نحاسية مكتومة الصدى، مبتورة.

- حصل لنا الشرف.

– الله يشرف مقدارك.

– من الناحية؟

–أبداً وهلل. مررت من هناك مجرد مرور.

– قلت تأخذ شاي؟

– شاي عظيم.

–أهلاً وسهلاً.

– تقول حدث شيء؟

– أي شيء؟

– أبداً. مجرد سؤال.

– حصل خير.

كان يصعد إلى الحارة من سلالم ضيقة حجرية متهدمة، ملبدة بطبقة قديمة من التراب. وجر قدميه في بركة صغيرة موحلة من ماء غسيل تتشربه الأرض، ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة، تكاد تسقط من بين أحجار مكومة في دور علوي مهدود. وعبر أمام بقال مظلم مدفون تنزل إليه سلمة إلى الداخل، وأمامه صندوق الكوكاكولا أحمر مقشر الطلاء.

وصمتت النساء لحظة ووهو يمر، جالسات على العتبات المتربة يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح ممدود، في قمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة. ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه، من حلة كبيرة.

وجه امرأة، كأنها طفلة، لكنه نسائي، معابث، غض، ساخر، مشعث الشعر تحت المدورة التي تنتهي بكريات صغيرة مهتزة ملونة.

ولد يقع في وسط الحارة، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه واستغرقته الجهد المستحوذ الذي تركز فيه كل جمسه باستمتاع، ورفع إليه عينين مستطلعتين، غائبتين، وجهه محتقن بالدم والجهد والريحز ودار حول الخرابة الغائرة الأرض ومن وراء كوم تراب عال هبت عليه منه رائحة العطن والبراز والصفيح الصدأ والأرض التي ينتقع فيها الماء على مهل. هدد بيوت قديمة. وراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة، قد أخذت منذ الآن ترث وتتشقق شقوقاً رفيعة متعرجة سوداء.

أين يجده؟ كيف يمكن أن يجده؟ قال إنه في كل مكان، في الميدان، في حواري الحلمية، في شوارع شبرا، تحت المتحف الزراعي، قال له في ساحات مصر الجديدة، وفي الصاغة، في أغوار الغورية، نعم جنب الجيزة، في جنينة الحيوانات،أيضاً ومقفلاً عليه داخل القفص وخارجه، أيضاً، قال له عند الساعة في سليمان باشا، وعند السفارات في العجوز، والزمالك، وفي الأزهر، قرب قرافة الإمام، وعلى العلو في العباسية، قاله له في كل مكان. الناس لا يعرفون، خطوة بخطوهم ورجله على رجلهم، أنفاسه في صدورهم الشرسة ونبضة قلوبهم المحطومة. لا تفهم؟ قاله له إنه يدخل الشارع –كل شارع. بأقدام واثقة له تعرف أنها تلمك الشارع، كل شارع. قال له بأعين حنون قابضة، تحتضن الناس، ساقاه الأماميتان عليهما شعر ناعم ومبلد تفوح منه رائحة الحيوان الوحشي الحريفة

الزاعقة، شممتها، قال له، أنفاسه زخمة بخراء، ولكنك، تعرف، تحبها، وتنشقها وتجد فيها طعماً تريده، قال له تجد الأشلاء فيما بعد، مرمية على التراب، وعلى الأسفلت، ويرفعها عساكر المرور ويضعونها على الرصيف كلقمة عيش، ويغطونها بورقتين مفرودتين من "الأهرام"، أو "الأخبار"، قاله له الناس تلقي بصفيحة ماء على الدم الذي يسود لونه سريعاً، أو يرشونه بقليل من الرمل أو التراب، وعجلات السيارات على أي حال سرعان ما تمحو كل أثر، قاله له إن قطعاً صغيرة ملوثة من ملابس الأطفال، ممزقة، يطير بها الهواء أحياناً، ويلفها الناس ويرمونها على جنب وتضيع، بين قشر الترمس واللب وورق كراسات التلاميذ الممزق، قاله له ينسل من تحت البوابات العتيقة، بين دكاكين الأحذية، وشوالات العطارين التي تنفث راحئة التوابل والبهارات، يحتك بأكوام الذرة المغلفة بخضرتها، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوي من صدمة جسمه بها، على شط النيل، بين المتنزهين والحالسين على العشب الناصل، قال له الناس لا تسرع ولا تجري ولا شيء، قال له صرير صدره، وزحيره، يتردد أحياناً، كأنه من الداخل، حيث لا يوجد في الشارع إلا ضجيج المرور، كرير أجوف يتذبذب داخل أسطوانة القفص الصدري الوثيق، ويلتفتون فلا يرون شيئاً، هرير عميق به حشرجة طبيعية منتظمة، ثابتة الغيقاع، قال له ضربة واحدة تجعل الرأس المبتور، فاغرا عينيه، صامتا، يسقط بصدمة مكتومة على أرض الشارع، وتتحاشاه السيارات، أو من خبط الأبواب التي تصطفق، قاله له أحياناً يجد الأولاد على

الرصيف،أسناناً منزوعة عليها تراب قليل، فينظفونها ويلعبون بها شمس يا شموسة، خدي سن الحمار وهاتي سن العروسة ويا شمس يا شموسة، خدي سن العريس وهاتي سن الجاموسة، قال له زمجرته أحياناً ترتفع في وسط النهار، توقف كل شيء في دائرة ضيقة ولحظة من زمن، وتخرس كل شيء، ويتكرر الزئير المحتشد والتهديد معاً، ولا ينظر الناس إلى بعضهم البعض، ينصتون لحظة، برغمهم كأنهم لا يصدقون إلى الصوت المفزع المروع معاً، ترتطم أصداؤه، في لحظة الصمت والإنكار، بين الجدران والنوافذ ولوحات الإعلانات، في قلب الميادين، أو في السكك المسدودة، وتسمع أحياناً أصوات الضلف والأبواب الحديدية أمام الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة، وأبواب الشرفات تصطفق، ولكنه بعد ذلك يعود فيسير بخطواته التي لا صوت لها، مركب بطيء رشيق ضخم الجرم على النيل، تتموج أشرعة جسمه، بقوة ومعرفة، وسط الناس الذين يعبرون إشارة المرور، لا ينظرون إليه، ولا يرونه أيضاً، يثب، في خفة، بين أنوار الأتوبيسات الحمراء المتربة، تنحرف له قليلاً، وتبطئ، لتتيح له أن يعابثها، مرحاً. شبعان، قال له خشخشة مخالبه تسمع أحياناً، في الليل على أبواب الشقق النائمة، ويستيقظ رب البيت، فجأة على الصوت، ويظن أنه يحلم،ويرفع رأسه قليلاً من المخدة، ويحبس أنفاسه، ينصت ويترقبو قال له إنه يعرف، إنه يعرف. قال له صحيح.

في كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الأخير، عندما تطبق عليه السيقان الشعراء الملتفة، في حنانها المصمم الخام، قاسية تؤدي

واجباً لذلك قسوتها ضرورية، تمسكه بمخدات الأقدام الناعمة المفلطحة، مخالبها الحادة مغمدة في جرابها، وتغمره الرائحة الحيوانية الزخمة التي لا فرار منها، الرائحة الخيبة الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب إلى الخارج عصاراته الطازجة في أول لحظات الفساد الأخير، ويلص جسمه، في قبضة كاملة الإحاطة، بعضلات الصدر العريض، تزحر فيه أنفاس متضخمة الإيقاع، هادئة، ويرتفع الكرير الأجش يملأ العالم، وتسطع الرائحة الملبدة الثقيلة تسد كل شيء للمرة الأخيرة، في حضن يضغط تلك الضغطة الرحيمة المهمشة النهائية التي يظلم فيها كل شيء.

ومواكب الناس تمر به، في باب الحديد، كل إلى وجهته، في وحدتهم واندماجهم معاً، ماذا يفعلون؟ هذه الوجوه التي لكم، منحوتة، مضلعة، منبعجة ومضغوطة، عرتها الوحشة والقسوة وجففتها وشققها العرق وخط فيها الألم والشبق أخاديد لا تمحى، هبت عليها وفتتتها أعاصير الشهوات والآمال الآمرة، كلها لا تفي بشيءوتترك الجوع متقداً لا ينطفئ، عطشانة دائماً، ويابسة، ذابلة، متطاولة، مسحوقة غصة، متهدلة، مشدودة في إيناع الصبا، فتورة النضج، إشراقة خاطفة تمتلئ بعدها باللحم المتلمظ وتعص بالتجشؤ العفن، هذه العيون المطاردة، والمختبئة، والمتربصة والمقتحمة، والجامدة. أرواح محبوسة في حفر قبورها، تتواثب وتخمش وتنبح وتزأر وتكركر بضحك الضباع، من غير صوت. أرواح تنادي، بصوت مكتوم. تنويعات شائهة على أصل بسيط وجليل

قائم عند أساس صخر الجسم الذي يسقط عنه فتات الحجر، لتترك مسوخ النقوش المعراة، طبقة بعد طبقة. ماذا يفعلون؟ إلى أين يذهبون؟

الوحش الذي يسكن قاع قلبي ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب، ثم تتهدم الأمواج. قاله له إن المركب لا بد أن يسير. أين سفينتي؟ قال له إن الصيف جاء مبكراً هذا العام وأننا بالليل سنعود إلى بيوتنا وننام. قال له ماذا تريد أن يحدث، كلنا لا بد أن نمر من الميدان.

عندما عبر الشارع أمام سينما مترو، دخل الممر الضيق، بين الحيطان المرتفعة المعتمة. أرواق الشارع ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت في كومة صغيرة غير منتظمة، جنب الرصيف، على البلاط المغبر القديم. ومر بذهنه أنه لم ينزل قط، ولم يصعد قط، مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التي تدور وتدور مرتفعة إلى ظلمة فوقية غامضة، إلى سطوح حادة لا منفذ فيها، في المغرب البرونزي الصدئ القاتم الخضرة.

كانت قدماه، من التعب والغياب تختطان به طريقاً غير مستقيم واصطدمت كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في أكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار. وكانت الدكك الخشبية على الأبواب، فارغة لا يجلس عليها أحد،لامعة مصقولة مجوفة في وسطها قليلاً من طول جلسة أجيال متعاقبة من البوابين المنسيين.

كانت تجلس على الأرض، ترضع ابنها، صعيدية سوداء، مجعدة وجافة، تنحني عليه بلا اهتمام، في حركة حنان لا يطاق،لا يبرر شيئاً ولا يبرره ثدي صغير داكن متهدل، مشقق بالغضون الذابلة، وطري مع

ذلك يحمل عصارته، حقيبة لحمية ملآنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصدر ويمصها الفم الشره دون هوادة، أنثى حيوانية هزيلة ولكن عينيها تلمعان لمعة غير حيوانية، من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه، من جفاف انتزاع العطاء من بئر ضحلة، ويئس الاقتراب والابتعاد، بلا نهاية، من الإشباع الذي يعد وينكث وعده، وينسى ويعود، في تكرار فقد كل نضارة وكل جدة. يرتفع بجانبها قفص جريد انكشف أضلاع الخوص الرفيعة فيه، متخاذلة ومصلوبة في رقتها، لا تتهاوى، مفروشة عليه بضع صحف يومية، وكتاب "الشعب" بعناوين كوفية وصورة مئذنة سامقة، اصفرت جلدته وتلوث أطرافها من الهواء السخن. وجهها الأسود المتهضم مضيء بصبر آخر، والولد على حجرها، مضغة تبدو لا أهمية لها، يتشبث، سمكة على حافة شط جاف به ماء قليل، يدفع بساقيه وقدميه.

أقول لك يا سيدتي، حبي، أمي، سخف هش مثير للضحك. أقول لك إنني أعتذرو إنني آسف، وحزين. عبث. لست أقول لك شيئاً، ولا أستطيع. ما أرخص هذه الدموع التي لا تريد –مع ذلك –أن تنسكب. لست أعرفك يا أمي، لا شأن لك بي، لا شيء يصل بيننا، كل دعوى أخرى باطلة. قال له الوحش سفينة تبحر بنا في مياه مجهولة. والعالم وحش، والألم. ولا هذا أيضاً. لا.

كان يمشي، في آخر نور المساء، في طريقه إلى الخاوي الذي تحيط به الأشجار، لا ينتهي، موحشاً، ليس فيه شيء على الرصيف وتحته برك

جافة من الحبوب الصفراء الدقيقة التي تسقط من أشجار الكازورينا في الصيف، يهب بها هواء الليل فتطير وتحط على أسفلت الطريق. مصابيح الشارع مضيئة زرقاء في ضوء السماء الأخير، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى فيه، وهو يسير، نائماً مغمض العينين، في إرهاق كامل وصل به إلى حدود الحلم، في غيبة لا يوجد فيها إلا جسمه، وحش مهدود، يمضي دون إرادة، دون مخالب، دون عقبة، دون وصول، بلا انتهاء. يحس السيارات تمرق من على جانبيه، في حلمه، صامتة، أصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها، يحس الناس على الرصيف غرباء، وإخوة يأمن لهم، ظلالاً قاتمة في نور وعيه الداخلي الخافت، عاكفين على طريقهم، دون توقف، ودون إسراع.

نداء يهتف به:

– إدوار.. إدوار ..

الصوت في هدوء الشارع يأتيه في حلم فسيح معتم، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة، يرتطم ماؤها بالحجر الصلب القديم، ويسقط. أهو نداء باسمه في الليل؟ لا، ليس هو. اسمه غريب عنه، ما صلته به؟ والصوت غريب.

ودون أن يفتح عينيه، كان يبدو له أن البيت بعيد.

الإسكندرية

١١ سبتمبر ١٩٦٩

أقدام العصافير على الرمل

كان العالم في فجره الأول، خاوياً ليس فيه أحد، والهواء النقي، صحراوياً وصحواً، فيه بلولة البحر وجفاف خاص في الوقت نفسه.

كان الوقت ظهراً وهادئاً، كامل السكون.

الصمت ليس صلباً، صمت ناعم. كل شيء كان ناعماً، صلباً كنت قد عدت إلى هذا العالم الذي لا ينقضي أبداً. وأنا مع ذلك غريب فيه أعرف أنني لست هناك.

وأمي تمسك بيدي ونحن ننزل من القطار إلى المحطة في أبو قير، وحدنا. لم يكن في القطار، ولا في المحطة، غيرنا.

أرصفة المحطة مرتفعة، قائمة مباشرة على الرمل الأصفر النظيف، وأرضيتها سوداء لامعة البلاط.

مبنى المحطة، بمدخله الرطب الظليل على الرمال من الجانب الآخر، وسقفه المثلث المكسو بطوب القرميد الأحمر، وشباك التذاكر الوحيد

المكتوب عليه بالعربة والإنجليزية، ومن وراء قضبانه الحديدية وجه ناظر المحطة، جامد في العتمة، يبدو كأنه مسحور.

الخرطوم الأسود الضخم، معلقاً من الصهريجو بفوهته الحديدية المضلعة، متين العضل، جلده الخارجي منٍد وحار، يتدفق منه سيل متماسك القوام من الماء، يضرب الرصيف ثم يسقط مندفعاً كأنه شيء صلب ويتقلب ويهضب ويزبد برغوة شفافة وثقيلة وبيضاء، يهبط إلى الفراغ المستطيل بين الرصيفين العاليين، ويسيل على الفلنكات الخشبية وبين القضبان الحديدية الممتدة، بثقة، إلى المصدات الحديدة الشريرة الشكل.

نزل السائق من القاطرة القوية المدورة البطن، كاملة السواد، وعليها كتابة ذهبية اللون، وما زالت تنفث هبات كثيفة من البخار الأبيض في نور الظهر، انحنى بكل جسمه، وأدار، بجهد، عجلة ضخمة افقية على الصنبور الكبير المنتصب على الرصيف، فانقطع انصباب الماء وتحول إلى سلسال رفيع يتقطع ويتصل، ويتقطر من على جانبي الرصيف إلى الرمال الخشنة التي تتشربه، بسرعة وعطش، تحت الحصى والزلط وتراب الفحم.

كان الرجل صامتاً وهو يعمل، وكان الماء صامتاً، والمحطة صامتة لا صوت هناك ولا أحد.

ورأيت بجانب المحطة عربة كارو واحدة. الحصان المطهم بالرقبية النحاس العريضة التي تومض في النور، وحده، متروك، يدفع خطمه،

بعمق، في شوال التبن وتصلصل فجأة الجلاجل النحاسية الصغيرة المعلقة حول عنقه، وتهتز أصداؤها في السكون الفسيح رفيعة الجرس حادة الوقع، متلاحقة، صغيرة.

فانطلقت أجري، أفلت من يدي أمي، وأنا أنتزع قدمي بصعوبة من الرمل الطري يغوص فيه حذائي القماش الذي كنت قد بيضته، في الصبح المبكر جداً، بحجر أبيض وقطعة فانلة أبللها بالماء من صحن فنجان القهوة.

قالت أمي: باسم الصليب وشارة الصليب. ولكنها لم تناد عليها تركتني أجري. ودخلت، وحدي، في الممرات الصحراوية الواسعة بين العشش والكباين والبيوت الحجرية القليلة المبنية من دور واحد. من وراء أسوارها المعمولة من البوص والمربوطة بالياف باهتة غليظة، مغروسة في الرمل. وكنت أمسها بيدي وأنا أجري في الرمل بصعوبة، فيتمايل السياج، خفيفاً، وكانت فيه فتحات طويلة رفيعة بين قوائم البوص المحترق من الشمس. وكانت الشوارع ترتفع بي وتنخفض، كلها رملية، نظيفة، والهواء يرتفع بهبوات صغيرة من الرمل الدقيق، لها حفيف في أعواد البوص الهش.

وكانت النقوش المخرومة بأشكال هندسية وزخرفية، في خشب الكباين المغلقة، والشرفات المائلة الخالية التي تقشر طلاؤها، تواجه نور الظهر بعتمة حميمة خاصة من الداخل.

وبين الكباين فجوات عرضية غير منتظمة، ضيقة وصغيرة وظليلة دائماً، وعلى الرمل أوراق صحف رقيقة يابسة غطتها الرمال. وتغوص في الرمل أغطية زجاجات الكازوزة وعلب الصفيح الصدائة ونفايات جافة حادة، وترتفع منه، بين حيطان الكباين، أشجار نخيل مائلة وخشبها صلب ومضلع والهواء دائماً له وشيش في رؤوسها المترنحة بالخوص الرشيق المهتز.

ومن وراء العشش سمعت النداء المنغم الثقيل، في الفراغ الواسع، جاز.. جاز، وللنداء صدى مليء برغبة لا تفسير لها ومنذرة.

وظهرت عربة الجاز فجأة أمامي،قريبة جداً مني، في التقاطع العريض. بجسمها الأسطواني الصغير الملون بالأحمرو وعلهيا رسم شق الصدفة المفتوحة، والكتابة الممتدة على بطنهاو ويجرها حصان واحد بطيء أصهب، منكس الرأس، مغمى العينين وعجلاتها الكبية باستدارتها الخشبية المرتفعة حتى وسطها المنتفخ، دوارة على مهل تترك خطين غائرين في الرمل، وهي تنحدر في طريقها الذي لا تصادف فيه أحداً، ولا يرد عليه فيه أحد.

وقلت لنفسي لا بد أننا كنا في أول الصيف،مبكراً جداً في الصيف، ربما بعد عيد القيامة.

لكن ذهابنا إلى كابينة الشيخ مقار في أبو قير عيداً متكرراً في كل مرة ولا ضمان لمجيئه أبداً. أولا رحلة القطار المثيرة. ثم نقضي اليوم كله على الشاطئ وفي الكابينة، وبينا أبقى على الشط، كانت أمي تذهب

إلى آخر البراميل في البحر، وتتجاوزها، حتى لا أعود أرى منها إلا نقطة سوداء. كانت تلبس المايوه الطويل الساقين الذي لا يكشف إلا الذراعين والنحر المدور، وتنزل البحر مع صديقتها، وكانت تسميها "حبيبتي فكتوريا" بنت القسيس البروتستنتي الصعيدي المربع الوجه بعينيه الحنونتين الماكرتين في الوقت نفسه.

وكانت فكتوريا طويلة ونحيلة ووجهها ناعم مستطيل ينتهي بذقن كأنها منحوتة مسننة ورقيقة، وعيناها مسحوبتان إلى جانبي وجهها كأنهما مدببتان وبهما نظرة هادئة وصامت جداص وصوتها دائماً خافت. حتى ضحكتها كانت خفيضة ومتتابعة الإيقاع. وبينما يحبك المايوه القصير الأسود أعلى ساقي، وعليه القميص الحرير الأبيض القديم الذي ألبسه عندما نذهب للبحر، كنت أسمع ضحكتها من وراء خشب الغرفة المجاورة وهي تخلع ملابسها مع أمي.

كنت أحب فيكتوريا، وأهرب منها، خجلاً، ولا أمل من النظر إليها واشتاق إليها جدا.. ترسبت على هذا الوجه طبقات من حب جاءت أمواجه العاصفة مرة بعد مرة وانحسرت. أنظر إليها بحب فتى صاف وأحس فيه مع ذلك شروخ العمر كلها.

هل كانت أمي تريد الذهاب وحدها وتتركني مع أخواتي البنات في البيت المزدحم في غيط العنب؟ وهل بكيت يومها بتلك الدموع المحبطة المحترقة التي تسقط مع سقوط العالم نفسه؟ وهل نسيت هذه الفاجعة

المتكررة التي ما أقساها على ذلك الطفل الذي لم يكبر أبداً؟ نسيتها بمجرد أن استدارت الأحداث؟ وهل جريت أسحب حذائي القماش من بين الكراكيب تحت السرير، وأبيضه بطلاء حجر لتلك المنقور في وسطه بحفرة ناعمة من مس الخرقة المبللة بالماء؟ وألبس بنطلوني القطيفة الأسود الذي ألبسه في الأفراح وأيام العيد؟

كانت أرضية الممر الخشبي المظلل في الدور العلوي من العشة تهتز تحت قدمي وتتأرجح قليلاً، بين سياج الشرفة التي تطل على الشارع من ناحية وأبواب الغرف المغلقة من ناحية أخرى، وتسحرني الشقوق الطويلة الرفيعة بين أخشاب الأرضية، خطوطاص حارة من نور الظهر لو انحنيت عليها ووضعت عيني عليها لرأيت رمل الشارع تحتها.

وعندما دخلت الحمام كان يحيرني كيف تأتي المياه إلى الصنبور والحوض الصيني المثبت في الحائط الخشبي، وإلى أين تذهب مياه السيفون الذي يجهش فجأة، يتقطع ثم يهضب بالمياه مرة واحدة، فوارة، متقلبة اللون. ونزلت على درجات السلم الهشة الوعرة القائمة، أحس خشبها البارد بباطن قدمي الحافيتين، عندما نظرت إلى أعلى رأيت فكتوريا تلف حول وسطها روب الحمام ذي الوبرة الناعمة الزرقاء، وفي قدميها شبشب بني داكن وقديم الجلد جداً، وساقاها المسراوان الرفيعتان ترتفعان تحت الروب الذي ينضم عليهما وتنتهيان إلى العتمة الغامضة السحرية. وكان ثدياها، في المايوه المرتفع الرقبة بلونه الكحلي الباهت من الشمس والماء، صغيرين مخروطين رقيقين يبرزان مباشرة تحت قماش المايوه

الذي ينسدل عليهما ويحيطهما بخفة، دون حاجز، فتتجسم الحلمتان بارزتين ومدورتينز ونزلت إلى ببطء، كأنما بدون اهتمام. ورأيت عينيها تبتسمان، ونزلنا نتسابق. كنا جنباً إلى جنب على السلم الضيق. نجري، قالت لي: أنا سبقتك .. الذي سبق أكل النبق.

وضحكت ضحكتها السرية المبحوحة قليلاً. فأحنيت وجهي الممتلئ فجأة بدم الخجل وجريت إلى الرمل ولسعتني حرارته.

هل كنا نزلنا، البحر، وعدنا، وأكلنا، وأنا الآن وحدي، بعد الظهر في الصمت الكامل، في الفجوة الرطبة الظليلة بين رمل الشارع وأرض الكابينة، أقلب في الرمل بيدي وأحس نداوته تحت السح المحبب، وأفكر في الجسم الضيق المسحوب الذي أخذته المياه بعيداً عني، وأنا على سيف البحر، في وسط خليج صغير، مملوء بمياه شفافة بللورية النقاء تترقرق فيها خطوط متموجة كأنها مرسومة بقلم متحرك رقيق تذهب وتجئ بنعومة بين الصخور الصغيرة التي تنحسر عنها المياه فتجف بسرعة ثم تعود فتبتل؟

سرعان ما تحول المايوه الباهت إلى نقطة بعيدة في البحر الواسع.

وكانت أمي قد سبقتها إلى ما بعد البراميل، فلم أكد أراها بين ما تثيره الأمواج من زبد قليل.

كنت أقف في وشل الماء الصافي القليل الغور وأنظر إلى الجسر الخشبي الممتد إلى داخل البحر على أعمدة مستديرة قصيرة من الأسمنت

اللـزد تنـتفض عليـه طحالـب خضـراء شـفافة، تلعـب في المـاء وتهتـز، مخلوقـات حيـة، ثم تخرج من سطح الماء مبللة ممتزجة الألياف، ثم تجف فجأة وتصفر وتصبح يابسة كالورق القديم، بلا حراك.

ولم يكـن هنـاك الآن، في الظهـر، مـن يقـف على الجسـر بـأعواد البوص وجرادل الجمبري والدود الصغير، كان الجسر يمتد بخشبه الجاف بعيداً إلى داخل البحر لا ينتهي إلى غاية.. وكانت الوحشة على الشاطئ كاملة. لم يكن هناك أحد من المستحمين في هذا الظهر الهادئ، وكانت الشمسيات المتناثرة المتباعدة قديمة الألوان، تلقي بظلها على المقاعد المقاشية المفتوحة الخالية، وحتى حارس البرج بصفارته النحيلة الصوت لم يكن موجوداً.

كنت وحدي لا أعرف كيف أدخل البحر الواسع العميق المخيف السحر، ولا أعرف كيف أرجع عنه.

وكان على صفحة الرمال البيضاء آثار أقدام عصافير لم يمسها أحد، صغيرة واضحة محددة، تتتابع في خط واحد مقوس، ثم تنقطع فجة.

أحنيت رأسي قليلاً حتى لا أخبط أرضية الكابينة من تحت، ودخلت من بين الأعمدة الحجرية القصيرة المربعة الرمادية التي أميمت عليها الكابينة. وكان على أن أنحني زاحفاً بيدي وركبتي العاريتين على الرمل. وكانت أوراق صحف قديمة صفراء مدفونة في الرمل تخشخش بهواء سري يأتي في تيار ساخن من الشمس في الخارج. وكانت صفيحة

الزبالة على ركن الكابينة في الممر الضيف تفوح برائحة جافة خفيفة العطن غير مألوفة وغير مقلقة. وكنت أحس حركة الأرضية فوقي تهتز قليلاً من وقع الأقدام وتثيرني صورة للساقين المسحوبتين الرقيقتين تتحركان عاريتين في غرفة مغلقة خشبية الجدران مشعة بنور يتسلل من وراء الخشب المشقق الألواح.

وقعت يداي وهما تقلبان الرمل على زجادة صغيرة زرقاء مدورة البطن منقوشة بحفر بارز من حروف دقيقة لا أعرفها. وكنت أعرف أنها زجاجة عطر مثل التي أجدها على رخامة البوريه أمام المرآه، عندنا في البيت، جنب المكحلة الفضية ذات المرود الرفيع الذي تنتفض لمرآه حواف جفني،وعلبة البودرة النحاس بمرآتها الصغيرة، ودبابيس الشعر الصفراء ذات الشعبتين لمتلاصقتين.

وكانت القنية مملوءة بالرمل فأفرغتها منه ونظفتها بيدي بعناية ولهفة،وزحفت خارجاً بسرعة، محنى الرأس، وركبتاي تحتكان بالرمل الرطيب.

وجريت أصعد السلالم واندفعت إلى غرفة الجلوس حيث كانت أمي ممددة على الكنبة الأسطنبولي ذات الشلت الملونة. وتوقفت لحظة، في انطلاق الجري، عندما رأيت فيكتوريا جالسة على آخر الكنبة، بجانب قدمي أمي. مستندة بظهرها إلى الوسادة الطريقة وقد رفعت ذراعها إلى أعلى تسرح شعرها بحركة منتظمة الإيقاع هادئة وأنثوية،

والنظر في عينيها بعيدة وليس فيها حزن ولا صمت، كأنها قد تركتنا كلنا ولا تعرف أين هي.

اندفعت إلى أمي وقلت لها: انظري ماذا وجدت؟ ومددت إليها يدي بالقنينة السحرية الزرقاء اللامعة الآن من عرق يدي الممسكتين بها كأنها كنز فابتسمت أمي وقالت دون غضب: يا ما جاب الغراب لأمه.. ولم تتناول مني الزجاجة ولم تنزل من عيني الدموع.

كنت أمشي على حافة الماء، على سيف الشاطئ، والعالم مهجور. وفي جسمي إنهاك طيب الحس من يقظة دماء الصبا والاحتراق تحت شمس البحر كان الماء لم يجف بعد، أراه يلمع على سطح الجلد في جسمي الذي يتوهج وينبض في حرارة منتظمة الدقات.

كانت المياه الزرقاء الصافية تحت قدمي قليلة العمق، تكاد تكون ساكنة إلا من رقرقة خافتة بطيئة النغم، فيها انفساح السماء المقلوبة المحبوسة،أعمق قليلاً في زرقتها من الخواء الشاسع المنير بالشمس، وتمتزج بمهد الرمل الناعم الذي لم تكد تترك قدماي في سطحه أي أثر، أملس هادئ الصفحة، من جديد. انتزعت رجلي من هذه السماء التحتية، ووضعت قدمي المبتلتين على أولى السلالم الرخامية وهي تتسايل باهتزاز رقيق وكأنها مكسورة، إذ ترتفع فجأة من جلد المياه الشفافة التي لا تكاد ترى. كان الرخام الأبيض الغني في نعومة النبيذ، وعراقته. وكانت حواف الدرجات المتصاعدة في دوران خفيف لا يكاد يحس، تدخل من جديد ناحية الحبر في انحناءة واسعة وهي ترقى نحو السماء المحرقة، درجة بعد

درجة، سامقة، في غير تعجل، برخامها اللين المتماسك الرقة في إهابة ثغرات صغيرة مفتوحة تزيده نعومة. وقد جففته المشس، ويتبخر الماء القليل الذي تتركه قدماي عليه، غشاء سرعان ما يتطاير لا يكاد يترك أثراً أكثر دكنة من لون الرخام الذي يزداد سطوعاً، وأحس سخونته تحت قدي كلما صعدت،وكلما جفت شيئاً فشيئاً آخر قطرات الماء التي تبلل قدمي.. كان في صعودي على هذه السلالم التي لا تنتهي لهفة وتطلع وخفة،كأنني سوف أجد شيئاً لا أعرفه، لكنني شديد الشوق إليه، يثيريني، هناك في قلب زرقة السماء الخفيفة.

ووصلت إلى آخر درجة في السلم، دون جهد،كأن شيئاً يحملني، بل ودون أن أحس، حتى،أن هناك شيئاً كان يحملني، بقوة خارجية ومنبثقة عني في وقت معاً. وكان البحر تحتي بعيدا، ساحق البعد، والأمواج تصطدم دون صوت من فرط بعدها، والزبد المتقلب في خط متعرج صغير الفوران يذوب في زرقة مخضرة بالقرب من الشاطئ.

كانت الدرجة الأخيرة واسعة، لا تستند إلى شيء، مفتوحة، توحي بسهولة الانزلاق والسقوط، وفي الوقت نفسه ليس فهيا خطر ولا أدنى تهديد، كأن الانحدار منها إلى سطح البحر الذي يترقرق،عميقاً ، بعيد الغور، تحت، سيكون أقرب إلى هبوط لا وزن له وبلا ثقل ولا صدمة وكان رخامها مصقولاً ومدوراً ليست فيه الثغرات الخفيفة التي كانت تقل تدريجياً كلما صعدت، حتى عادت إليه نضارته، جديداً، وساخناً، وكامل الملاسة.

وكان الإحساس بالرخام الحار فيه متعة، وكأنه يرد، بمجرد هذه الحرارة البضة، على تطلب خاص للجسم الذي يلتصق به وتنتقل إليه حرارته الممتنة ويستجيب إلى حنانه الأنثوي الصامت بمتعة مستغرقة صامتة، تترقرق وتمتلئ، وتنطوي على السماء ومياه البحر البعيدة ووقدة الشمس الفسيحة المشتعلة بهدوء، وتلتصق باستدارات هينة وطيعة، وتجيش وتحتشد وتتضخم، حتى تنفجر، ويتطير قرص الشمس المحترق مزقاً تغوص في بطن الزرقة في طعنات متناثرة متطاولة الأصداء، وتذوب، يعود نور الظهر أبيض صامت اللون.

انتهيت إلى آخر الشارع، وتركت خلفي آخر عشة. وكنت أحس أن دم الشباب ما زال يجري في سنوات أخيرة، وكانت محطة السكة الحديد تبدو صغيرة وبعيدة وساكنة، كأنها لعبة، من وراء الكنيسة، وعلى الجانب الآخر أرى شواشي غابة ضيقة من النخل، متطاولة في خط منحن، غارقة تكاد تغوص بين ربوتين متموجتين من الرمل الأبيض، لا يعلو منها إلا رؤوس السعف التي لا تكاد تهتز.

وقفت في فسحة من الرمل تبدو غير نظيفة، وأكوام من القمامة ترتفع وتتناثر في غير انتظام ليس فيها إلا راحئة عذوبة عطنة هينة، وقلت لنفسي إن الزبالة عندنا ليست صعبة على التحلل، فماذا نترك للزبالة، نحن؟.. ورأيت مع ذلك علب الكوكاكولا الحمراء المقشرة الصفيح، وعلب السمن الجديدة الزرقاء المهشمة، وأكياساً من النايلون الممزق

عليها إعلانات الويسكي والسجاير الباهتة، وسنان شظايا زجاجية ناتئة من بين أوراق الصحف، وقماش مايوه نسائي قديم ممزق ورث النسيج.

وفي أول الخلاء المطل على امتداد الصحراء، وراء قضبان السكة الحديد، كانت تقف سيارات النقل الضخمة، حمولة ١٠ أطنان، عجلاتها هائلة الاستدارة وسوداء وكثيفة المطاط وقد غاص جزء منها، بثقلها المكين، في الرمل الصلب. محركاتها تدور بدمدمة منتظمة الإيقاع، وقد تركها سائقوها والتفوا في حلقة صغيرة بستراتهم الجلدية المتسوردة كوفياتهم التي تدور بأعتاق قوية، وأحدهم يضع طاقية بيضاء مدورة على شعره الطويل. وكانوا يدخنون. وسجائرهم يتصاعد منها، في هدوء المصيف الشتوي، دخان خفيف الزرقة ولا يتحدثون. كانت السيارات مثقلة بحمولات مختلطة من الأسمنت والكتب والورق والطوب وأسياخ من الحديد في رصات مشعثة الحواف، متفاوتة، تخرج منها أطراف القضبان الرفيعة في تقوسات حادة تنذر بمقدرة سهلة على الاختراق والتمزيق. ومع أنني كنت بعيداً جداً فقد أدرت رأسي كأنني أتجنبها، وتوقفت.

وغير بعيد رأيت أمين شرطة صغير السن. نحيل ورياضي الجسم، والكاب على رأسه الحليق، ومسدسه في جرابه الجلدي الداكن. كان يقف وقفة ملل. وجهه جامد فيه غضب مكتوم، عيناه لا تنظران إلى شيء، ووراءه مخبران بالمعاطف الطويلة والأحذية الميري العالية، عاريي الرأس، كل منهما يمسك خيزرانة رفيعة يضرب بها جانب معطفه بحركات منتظمة.

كانت العشش كلها مقفلة، ورائي. وقد سقطت على واجهاتها أغطية الحصير المضفور مثبتة على الأرض بحلقات حيديدة ضخمة الاستدارة وصدئة وخشنة المظهر. والشمس التي تغيب تلقي ظلالا طويلة على الطرقات الرملية المهجورة. كنت أتلفت بلهفة، في وقفتي بلا حراك، ولم يعد هناك غيري في نهاية هذا العالم الرملي. أنتظر بلهفة أن يأتي أحد كأنما بنجدة من خطر لا أعرفه، أن يظهر أحد، فيحمل معه الأنس والألفة والأمن بمجرد ظهوره، أن يترفع صوت، أو نداء، أو صرخة.

ولا يأتي أحد.

ليس هناك إلا حفيف أمواج البحر، متكررة، عنيدة الإيقاع، بعيدة جداً ..

كان العمال الصعايدة يدورون حول السيارات في مجموعات صغيرة ينزلون رصات القضبان الحديدية، ويسقط الحديد في هديد مكتوم ويشق على الفور خطوطاً طويلة في الأرض الرملية. أكياس الأسمنت المغبرة من الخارج بترابها الأبيض الذي طمست الكتابة عليها، فلا تبدو إلا حروف باهتة "بورتلاند" بالإنجليزية، يعتلها صعيدي متين الظهر ركب السيارة وقد وضع زكيبة قديمة على نفسه يحمي بها رأسه وجسمه، ويجعله تنزلق من على ظهره المشدود فيتلقفها زملاؤه، تحت، قوبي الأذرع، متوترين، ويلقونها على الجديد. وكان يجمع من تحتها أكواماً مضطربة من الكتب والمجلات والأوراق مختلفة الأحجام والأشكال

مهوشة، ويلقيها إليهم، فتسقط الكتب من أيديهم على الرمل وتتمزق إلفتها التي بهتت ألوانها، وتتطاير من بينها أوراق جديدة مصقولة وقدمية ومصفرة ومطبوعة ومكتوبة بخطوط غريبة، وبالآلة الكاتبة، كأنها مراسلات حكومية أو رسائل حب أو مسودات محاضرات ورأيت أعداداً قديمة من مجلة الفكاهة والهلال وكل شيء والمقتطف واللطائف المصورة والمجلة والكاتب والكواكب، بأغلفتها وأحجامها المتفاوتة الألوان، وصورها ورسومها المثيرة للحنان. وكان الصعايدة يقذفون بالأكوام بعضها فوق البعض، وتتهشم الكتب والأوراق. قوالب الطوب الحمراء أحسها تحتك بالأيدي الخشنة، وهم ينقلونها بسرعة، أربعات اربعات، ويرمونها على الكتب والأسمنت والرمل والحديد، فتنكر شظايا جافة رفيعة من حوافها المتسقيمة.

وكانوا جميعاً صامتين. ليس هناك إلا صوت الحديد يصطك بجانب السيارة وهو ينزلق إلى تحت ويخبط الرمل، وخشخشة الورق، واحتكاك أكياس الأسمنت وجفاف الطوب، ولا أحد يتكلم.

وقلت لنفسي: أين غناء الصعايدة البهيج ورنات الشجن البعيد الذي فيه، عندما يعتلون أثقال الدنيا، ويحطونها؟

ولم أسمع صوت ما قلت لنفسي.

أردت بحافظ لاعج لا يقاوم، أن أقترب من حلقة السائقين. وعرفت معرفة يأس كامل أنهم لا يرونني، ولو اتجهت إليهم بالحديث لما سمعوني. وأردت أن أتحرك إليهم مع ذلك. وقدماي الحافيتان المبلولتان

بماء البحر تدوران في الرمل تحفران بدورانهما البطيء الثقيل حفرة عميقة مصممة، ولا تتحركان.

انبعثت أولى ألسنة النيران من بين الأكوام. وكان في الهواء النقي رائحة نفاذة حريفة. وزحف لهلب بطيئاً ومتوجساً وحذراً في الأول، ثم تلوى، بثقة أكبر، وغاص مرة واحدة حتى اختفى ولم يعد يظهر له أثر بين الحديد والأسمنت. ثم انبثق فجأة، في قلب لهفتي، من الناحية الأخرى، فوق الطوب الذي رأيت لونه يسود قليلاً، ورأيت النيران تأخذ كل مجدها وكانت عفية ولها سطوة، وصوتها يشقشق، ولها قرقعات سريعة متلاحقة، ودخان الورق له رائحة الجير المحترق.

ورأيت أغلفة "ساعات الكبرياء" الحمراء اللون تبيض بين ألسنة اللهب وأوراقها البيضاء تنثني على نفسها وتسقط أطرافها محموشة بالنار. وسمعت أصوات أصدقاء قدامى لم أرهم من زمن وكان فهيم من يعيش الآن في لندن وابريس وهارفارد، وكان فيهم صديق كنت أحبه ومات منذ قليل بسرطان في الرأس وصديق مات منذ عشرين سنة غريقاً في العجمي، وكانت فيكتوريا تجري معهم، بالروب الأزرق الناصل الوبرة، وكانوا كثيرين، وكانا يجرون وراء أشياء ليست سهلة المنال. كانوا يجرون ناحيتي، وناحية النار ويتنادون بطلب النجدة، وتليفون المطافئ، وجرادل من ماء البحر، وأصوات أخرى تقول لا فائدة.

ثم انفجرت النيران في دوي ساطع النور.

نقطة دم

رأيت أنني تحت بوابة شاهقة الأركان، مقوسة السقف، وحدي. بين أعمدة حجرية سامقة بيضاء مشدودة الجلد ناعمة دسمة اللحم، في النور النقي الحاد.. درجات السلم ترتفع أمامي، عريضة خاوية. أصعد عليها في الفضاء الفسيح. وقع خطوى له أصداء بين الأعمدة.

وأدخل في الحلقة الحديدية الضخمة الملتوية القضبان، تومض، ويتفصد عليها الندى، وهي تلف حولي، مفتولة العضل، ولا تمسني. لها صرير متمكن ينبعث من تروس أعرف قوتها وتهديدها، ولا أراها تدور في عمق ما داخل الأرض التي تهتز تحت قدمي.

وأعرف مرة أخرى تلك البهجة والوجل، والفرح والتشوف، الرغبة والقلق تجيش كلها في صدر الطفل الذي كنته والذي أنا هو، معاً، وأنا أضع رجلي في العالم المفقود.

الحر له قوام كثيف، يهب بأنفاسه اللافحة من أولى طرقات الحديقة الممتدة أمامي بلا نهاية، متربة، مظللة بالشجر.

وفي هذا الصهد الجاف أعرف أنني قد بعدت جداً عن بحر الإسكندرية الفسيح المتقلب بالهواء المبلول. وقد انطبقت على النباتات المزدحمة بحياة حيوانية تطوقني بأغصان أثيثة متهدلة وساكنة الورق، الشمس فوقها ثقيلة، وغريبة.

وأعرف أنني لست طفلاالآن ولكنني لست بعيداً جداً عن ذلك الطفل، وأعرف وحشة سنوات الشباب الأولى وآمالها الغامضة التي تنوء بقلب لم يتغير.

رائحة الماعز الجبلي تأتي من الحوش الترابي القاحل الذي يمتد ببطء، متموجا وصلباً من وراء شبكة الأسلاك العالية، إلى الوجار المظلم الفتحة، وذكر وحيد، فارع القرون، يبدو صغيراً جداً، وحده، على قمة كومة من التراب والحجر وكتل الأسمنت.

تتطاير هبات الرائحة الحريفة في الحر، تتلوى في السخونة الراكدة، كأنها ملموسة باليدين، عطنة وخشنة، وتهاجمني رائحة الخروف المربوط بمسمار كبيرة بارز مفلطح الرأس في حائط سطح البيت، والحبل متراخ ساقط على صوفه الملبد، لا ينفك طول أسبوع الآلام قبل العيد الكبير، والبرسيم الأخضر مرمي أمامه على البلاط.. حذاؤها يقرقع، بكعبه العريض، على حبات الحصى. خصرها الدقيق بجانب ذراعي، تتوتر يدي إلى جانبي بحركة بطئية مقصودة، لا تلمسه ولا تبتعد عنه.

أزهار الجزورينا الحمراء الدقيقة الهشة مفروشة على جانبي الطريق. ونواصي الشجر تتقد وسط عتمة الخضرة بهذا اللهب الصغير المتناثر وأحس تحت حذائي الكبير الواسع قليلاً بالفتات الأحمر الجاف.

كانت رسالتها مكتوبة بالقلم الرصاص على الورق المسطر المصفر قليلاً والمطوي طيتين: "يا صديقي، يا أعز صديق، إنني أحتاج إلى وجودك الملائكي بجانبي. أنا في أزمة خانقة لقلبي فأنا أحبه ولا يمكن أن أخذله وهو كما تعرف يحبني، وأنت صديقنا الوحيد الذي نبيحه اسرار قلبينا. لا أستطيع أن أشرح لك الآن في هذه الرسالة التي أكتبها بعيداً عن أعين والدي، أتوسل إليك أن تأتي. سأنتظرك في كازينو الشاي في حديثة الحيوانات في ركننا المعهود الذي لا أنساه أبداً والذي كنا نلتقي فيه ثلاثتنا. هل تستطيع أن تأتي يا أعز إنسان؟ غداً، كالمعتاد؟.. وهل سأستطيع الحاية حتى تأتي؟ أنا أنتظرك وأصلي الله وللعذراء مريم أن يقوى عزمك حتى أراك".

"ملحوظة: لا تخبره بشيء حتى نلتقي".

الدموع الناعمة الانحدار على عظام وجهي أحسها وتشايكوفسكي تعزفه "أوركسترا فلسطين". كان عازف التشيللو الألماني الملامح المدور الوجه ينظر إلى بعينيه اليهوديتين الضيقتين، فيهما سخرية كنت أظنها سخرية مني، وفيهما حلم مقهور أيضاً تخفيه الصنعة، ولمعة جامحة.

كان قلبي قد أجفل، وأحسست الدماء كلها تغيض منه، عندما نادى البوسطجي، "بوسته.. بوسته!". وهو يصفق بيديه في بير السلم. وتردد اسمي،غريباً في سمعي كأنه ليس لي، والبوسطجي ينادي. ونزلت درجات السلم الضيق، متعثراً، بالبيجاما والشبشب، بينما خرجت أمي بجلابية البيت، وهي تقول: "يا ختي.. ! خير إن شاء الله يا ربي.. يارب خير!"

سافرت من الإسكندرية بقطار الساعة الثامنة صباحاً، وقلت لأبي إن الكلية تطلب أوراقاً من مصر، وللنظر في طلب المجانية. وقلت لأمي إنني سأعود في آخر قطار الليلة. وكان في جيبي نصف جنيه وبضعة قروش أعرف ما معنى اقتطاعها من مصروف البيت.

ووصلت محطة القاهرة في عز الظهر،متربا ً من هباء دخان القطار ومرهقاً، ولكنني متفز بنوع من الحيوية العصبية والقلق. ولم يكن بيدي إلا نسخة من "الأهرام" ومجلة "جيروزاليم بوست" على غلافها صورة لمظاهرة فلسطينية يضربها الجنود الإنجليز، وعنوان رئيسي عن مستعمرة جديدة لليهود في الصحراء.

وأحسست بثقل جاكتتي الطويلة الزرقاء الداكنة. كانت أمي قد اشترتها لي رخيصة جداً من أولى شحنات الملابس المستعملة التي أرسلها الأمريكان معونة حرب، وكنت قد علقت عليها الشعار المعدني المكتوب بالإنجليزية "الجلاء" كانت المحطة مزدحمة وحارة وأنا أمر بين صفوف من الجنود الأستراليين، بقبعاتهم الكبيرة الناعمة الحواف، جالسين ونائمين

على أرض المحطة، وعلى أكتافهم وبجوارهم بنادقهم القصيرة وربطاتهم الصفراء الملفوفة بإحكام ودقة، صلتين جداً على غير عادتهم، وجوههم تنطق بالإنهاك من قلة النوم بعد إجازة قصيرة كلها شرب رخيص وبغايا رخيصات وقد استسلموا للتعب واللحرب التي أوشكت أن تنتهي. وكان في جيب كاجتتي طبعة "بنجوين" لمجموعة من الشعر الإنجليزي الرومانتيكي بغلاف أزرق خفيف، مطبوعة في القاهرة على ورق أصفر جاف بحروف قائمة كبيرة وفيها أخطاء هجائية.

خرجت للميدان الواسع المضطرب الحركة بسيارات الجيش الإنجليزي الصفراء المسرعة يقودها جنود كالأطفال بالفانلا على صدورهم المحترقة، والكاب الكاكي على شعرهم المقصوص، وعربات الحنطور تجرها خيل ناتئة الضلوع متهدلة الخصى. وسيارات الأجرة المربعة الشكل، ونساء الفلاحين بقاماتهن المنسرحة المنتصبة يحملن القفف واللفف على رؤوسهن القوية يخترقن سيل المرور المزدحم.

وأخذت الترام المفتوح من باب الحديد إلى الجيزة، وكانت تجلس أمامي امرأة لم تتوقف عن النظر إلى بعينين طويلتين عميقتين فيهما شبق وخجل، وجهها أبيض مغسول مسحوب كوجوه الشهدات في الأيقونات القبطية، وكانت ركبتاها عاريتين تحت فستان أبيض خفيف مبطن الكتفين، ولكن ناعم الانسدال على ثدييها، ودبوس طويل بفص يلمع مرشوقاً في الوهدة بين استدارتي النهدين، فحاولت أن أخفي ما حدث لي، ورفعت ساقاً على ساق وأحسست بخجل من البنطلون غير المكوي،

وتحملت العرق وما أحسه من توهج الوجه بأن أنظر إلى تيار المرور وأقرأ أسماء المحلات والنفادق قراءة آلية.

صرخات الطاووس ونداءات الببغاوات الثاقبة تمتزج في الحر بزئير خشن وبعيد ينقطع فجأة، فتعده زقزقة العصافير، كأنها فقدت الوعي، متصلة دون هوادة، ومرهقة.

هي الآن تجيء من بين المقاعد الخوص المستديرة الظهر، والموائد الحديدية المفروشة بملاءات ليست ناصعة البياض منقوشة بمربعات زرقاء، فينظر إليها العساكر الإنجليز بوجوههم الطويلة العظام، والأفريقيون بأنوفهم الغليظة وأسنانهم البيضاء السافرة في ابتسامة مفتوحة على مبعدة قليلاً من النيوزيلنديين بجثثهم الشاهقة. ويصفر أحدهم صفارة طويلة ويرفع شوب البيرة ويفرغه مرة واحدة. ومعهم امرأة حرفتها واضحة. حواجبها محفوفة مقوسة وشفتاها اللحميتان داميتان بصبغة فاتحة ووجهها الأسمر فلاحي خدوده بارزة ولها جاذبية صريحة أرضية. شعرها الخشن ملفوف بمنديل ناعم معمول من حرير البراشوت القديم وقد تغضن الحرير فوق الشعر العصي. فستانها الخفيف ملون بأزهار كبيرة صفراء وخضراء، وانعكاسات شمس بعد الظهر، متقطرة من على سطح ماء البركة الساطع اللمعان، تتخلل السيج الشفاف وتسقط بينه وبين جسمها الأسمر في وضاءة لها سيولة، كأن ظهرها وخصرها وجانب صدرها الكبيرة، كلها ثابتة في ماء مترقرق لا قوام له. صدرها يكاد يكون عارياً كله، يهتز طرياً، وعريضاً، وخصيباً، يثقل فتحة الفستان الواسعة

ويهبط بها قليلاً. جندي صغيرة القامة يضع ذراعه العارية المحمرة، في قميصه الكاكي بنصف كم، على صدرها، فتتخلص منه بحركة سريعة خبيرة. امرأة نضجت بل أوشك نضوجها على غايته، تضحك وفمها مفتوح ضحكة هادئة ومكتومة على غير المتوقع، وهي تخفض رأسها نحو صدرها كأنها تنشج لولا أن قسمات وجهها كلها سعيدة بنوع غريب من الرضى والنسيان. وظلال ورق الشجر مم على حافة البركة ترتعش وتتذبذب على ساقيها الداكنتين تحت سطح المائدة المعدنية، بين القوائم المدببة السوداء الصدئة قليلاً.

هي الآن تقترب مني، لا تلتفت إلى العساكر بل لم يسرع خطوها ولم يبطئ. ساقاها البيضاوان الرشيقتان العاريتان من تحت الجيب القصيرة، منعشتان، تنزلق بكبرياء من بين المقاعد، على وجهها الناعم بدايات ابتسامة صغيرة وجسمها ملفوف كأنها سمكة، أملس ينساب ف يموج البحر والناس، بلا اهتمام، وردفاها مسبوكان يهتزان بثقة كأنها سيدة مستوية الاركان. وأرى، بوضوح، في نور الشمس القوي، حزامها الذي يدور ببطنها الصبياني المدور وبنسة شعر تمسك بالمشبك الصغير المكسور.

وعندما أطلب الشاي الكومبيه ينظر إلى الجرسون بما ظننته يشبه السخرية وعدم التصديق. أما هي فهادئة الوجه وعيناها لامعتان، بلوزتها من قماش خفيف أبيض نظيف ومكوي يشف، بدو إيضاح، عن

قميص داخلي أبيض أيضاً يضم، بإحكام، صدرها الشاب النحيل، وأقول لنفسي إن الأبيض هو المودة هذا الصيف.

يدها وهي تتناول فنجان الشاي صغيرة كعصفورة ولها حياتها المتوفزة كأنها مستقلة عنها. حركتها عندما مست يدها يدي مفاجئة وحميمة تقف لها دقات قلبي، وأحس أنني أحمل ثقلاً.

قال لي إن قريباً لها يشتغل في مصلحة المحاجر والمناجم تقدم لخطبتها وأنه يملك بيتاً في شبرا وأرضاً في الصعيد وإنه عجوز تجاوز الخامسة والثلاثين وله كرش ولغد ونظارة مدورة وعيناه ضيقتان وفيهما نظرة احتياط وحسابات مستمرة وقالت لي إنها على استعداد لأن تموت ولا تقبل هذا الزواج وإنها ستنتظر إلى الأبد ولكن أمها تبكي ليل نهار خوفاً على عدل بنتها وخشية من فقدان العريس اللقطة وأن أباها لا يكلمها.. وقلت لنفسي إنها ستتزوج قريباً، وتنسى هذا الحب الرومانتيكي وتخلف الأولاد والبنات وتعكف على طبيخ بيتها وغسيل زوجها وأولادها.

وقلت لنفسي إن الحلم سينقضي وإننا نعيش في عصر لا يرحم وإن جولييت كانت وهما من أوهام الإقطاعيين في مدينة أوروبية في آخر العصر الوسيط.

وقلت لها إنه سيبحث عن عمل ويعطي دروساً في اللغة الفرنسية وسيحصل على الليسانس بتفوق، بعد ثلاث سنوات، وإنه سيأخذها معه إلى فرنسا ويدرس للدكتوراه.

فقالت لي إنها ستنتظر وإن إيماني به يقوي إيمانها وإنها تثق فيه وفي المستقبل وفي العناية الإلهية.

رائحة مياه البركة تحت الشجر الثقيل القديم تعود إلى برائحة التراب المبلول في قرية أمي منذ سنين، ووجه قريبتي جميانه. وكنت أتصور القديسة،دائماً بوجهها هي وبطرحتها السوداء الشفافة. وكانت أكبر مني بسنتين وكانت تلعب معنا الاستغماية وأمسكت بصدرها الصغير القوي، ووضغطت هي بظهرها على بجلابيتها المنقوشة بزهور حمراء وكانت ساقاها وردفاها ناعمة ومتينة. وكانت لحظة كالحلم ولكن متجسدة ولا يستطيع جسمي أن ينساها.وكان قلب مثقلاص وسعيداً ومتعباً ومضطرباً وكل شيء في المستقبل وليس هناك الآن شيء.

الكوبري الحديد الرقيق كأنه مشغولا بالدانتيلا ويهتز تحت أقدامنا. وجرؤت فأمسكت بيدها، في حنان ومواساة، ولم تسحبها على الفور. والهواء يرتعش وخضرة الصبار الشائكة صامتة ومتهددة. وأحسست وهي تسير بجانبي، وتصطدم يدي بيدها كأنما بعفوية وبدون قصد، إنها تحرص مع ذلك على أن تكون خطواتها على غير حذو خطوتي، كأنها ليست معي. أعرف، عندما توقفنا لحظة، أنها قد أجفلت كأنما المفاجأة أو ضربة خوف خفيفة، قد أرجعتها إلى الوراء.

كان الفهد الأسود المضفور الجسم يدور في قفصه الضيق، بحركة سريعة دائرية لا تتوقف، كل خلجة في هذا الجسد النحيل تنتفض بغضب لا ينفثئ لحظة واحدة، وعيناه الخضراوان مشتعلتان في الظل

تحت حيطان بيت الأسد المبنية على الطراز الروماني الرث بأعمدة من الحجر غير مصقولة الاستدارة عليها ملاط أصفر كالح، وبينها فراغات موحشة.. وكانت الرائحة العطنة المنتنة بالأنفاس الحيوانية تفغمني، وكانت اللبؤة مستلقية على جنبها وقد مدت ساقيها مفتوحتين في وضع نصف مقلوب والتهدلات الكبيرة تحت بطنها الضامر بذيئة في ضخامتها وسقوط طياتها بعضها على بعض وغموض تركيبها الذي بدا كأنه معقد وغير مفهوم.

كان المبنى كله خاوياً معتماً وقد أسدلت حصيرة من القش المضفور القذر وراء القطة الضخمة الشبعانة. وليس ثم حارس ولامتفرجون ولا الأولاد يتنادون ويتصايحون حتى يداروا خوفهم من الحيوانات الجسيمة برؤوسها البشعة، وأسنانها العاجية المكشوفة.

هذه الوحشة في المبنى، بجدرانه التي تقطعها نوافذ زجاجية مستطيلة مدهونة بالأزرق عليها قضبان حيديدة رفيعة، يخامرها غبش خفيف كأنها تحت ماء فادح الثقل.

الباب الذي تضربه الشمس بضوئها الممدد القوي يبدو بعيداً، بعيداً جداً لا يمكن الوصول إليه.

ولم أعد أعرف إذا كانت بجانبي، أو قريبة مني، فإنني لا أراها ونضارة جسمها لم تعد معي. ولكني أعرف أنها موجودة مع ذلك، وأنها تراني. والقلق الخافت الوقع في قلبي يمسكني أمام القطة المكومة الكبيرة، المضطجعة وحدها، أنا وهي، وحدنا، بيني وبينها قضبان حديدية عالية

ترتفع ثم تنحني تحت السقف الشاهق، في أقواس هندسية مغلقة وثيقة لا يمكن تخطيها.

ورأيت في جانب القفص شيئاً أبيض حياً دقيق الجسم،وادعاً إلى موقعه،يبدو واثقاً هادئ الروع، بتحرك بأقدامه الرقيقة على أرض القفص نحو اللبؤة الهائلة: وكان جلده مغطى بفرو أبيض نقي البياض، وفهمه مسحوباً مغلقاً يتشمم الهواء بألفة وتطلع طفي. وخطر لي أنه فأر ولكنه فيه ملامح الأرنب أيضاً وله ذيل كثيف طويل ملتو كأنه، أيضاً، من تلك الحيوانات الزهيدة البدن التي تتناثر في أقفاصها الأخرى البعيدة. هل هو سنجاب أو ثعلب صغير؟ ولكنه ليس غريباً ولا يثير الدهشة بل رأه لطيفاً وطبيعياً في خلقته وسلوكه على لسواء ودمثاً بل محبوباً، كأنني أرى كتكوتاً أبيض ينقر الأرض على سطح بيتنا في غيط العنب جنب كومة البرسيم، ويزقزق دون قلق.

نظرت إليه اللبؤة بكسل وملل ثم تثاءبت، وانفتح فمها الواسع المظلم بأنيابه الحادة دون صوت ألافحة انسحاب الهواء في نفس مشفوط عميق، وأغمشت عينيها.

وتقدم الشيء الحيواني الأبيض المرهف الجسم بخطوات سريعة ولكن مطمئنة بل كأن فيها شيئاً من الخفة والنزق، حتى وصل إلى القدم الضخمة بأصابعها المفلطحة ومخالبها الكامنة، ومد فمه يتشمم بفضول .. ودون أن تتحرك عضلة واحدة في الجسم الممدد البذي الذي انطلقت المخالب المقوسة فجأة، سكاكين مشحوذة السن، وبضربة واحدة

خفيفة، كأنها بلا مبالاة، طعنت العنق الأبيض المشدود.. سقط الحيوان الدقيق على جنبه، هامداً، تفصدت نقطة دم واحدة على الفرو الأبيض، مدورة، حمراء داكنة، ليس هناك غيرها.

كان في الجسم الناصع الوديع نقطة دم واحدة، لم يكن هناك في داخله إلى نقطة دم واحدة، كان قلبه يضخ نقطة دم واحدة، هي كل حياته، تقطرت من عنقه الآن، لم يتشربها فروه الناعم، لم يعد في شراينه وعضلاته شيء على الإطلاق، هذا كنت أعرفه.

سقط هادئاً مفتوح العينين.

الأشجار العالية تبدو ذؤاباتها الملتفة، من وراء سور الحديقة، وعليها أسراب كثيفة من طيور الأيبيس البيضاء الكبيرة الأجنحة، وقد أوت إلى مغاور الخضرة القاتمة قبل آخر النهار، ورائحتها نفاذة.

صفارات حرس الحديقة طويلة وبعيدة، ونداءات الأمهات. ولأقدام الناس حفيف منتظم على حصى الطرقات.

صرخات الحيوانات المحبوسة تنطلق فجأة من بين الأشجار ثم تنقطع، تنبئ بيقظة الليل وشهوة الافتراص القديمة، فتسكت شقشقة العصافير فجأة، لحظة واحدة، ويسقط صمت متوحش ليس فيه إلا خشخشة أوراق الشجر مع هبات أولى أنفاس المساء.

آخر أشعة الشمس تشعل الشجر فجأة بنار متموجة ناعمة من الزهر البنفسجي، جذوع الشجر لنية العضلات، عارية، مثيرة.

وتجاوزنا الباب الكبير وأخذنا طريقاً متربا جنب السور. وإلى جانبنا أحواش الكباش الجبلية والأيائل، خالية، ترابية ليس فيها زرع، مظلمة الفوهات.. وتحت القوس الدائري الحجري في باب الخروج الجانبي، بن الأشجار الكثيفة،كانت العتمة رطبة شيئاً ما، بعد صهد النهار. وكنت أعرف أن علّي أن آخذ آخر قطار بعد ساعة وأن كل شيء ما زال بلا حل.

كان هذا الجانب من الحديقة مهملاً ومهجوراً وليس فيه ناس، ولم أر حارس الباب وكانت وحشة الغروب والحزن الخفيف تثقل قلبي. وكنت أعرف أنني لست في الحديقة وأنني لست في ذلك الزمن، وأن جميانة ليس لها وجه هذه الفتاة، وكان وجهها مثل وجه قديسة، ورايت لأول مرة ودون دهشة،جرحاً دقيقاً يلف رقبتها كأنه حز أحمر رفيع جداً، كأنه أثر ذبح بسكين ذات حد مرهف الرقة. ولم أحتمل. فانحنيت عليها وقبلتها في فمها. وانفجر الدم من شفتيها.

الرملة البيضاء

كانت سيارة الرئاسة السوداء المشكوفة قد مرت بآخر ميدان الأوبرا القديم الفسيح، أمام كازينو صفية حلمي بالضبط، وهي تدور الآن في الشارع الضيق المفضي إلى العتبة ثم إلى الأزهر.

وكان الرجل الفارع الأسمر يلوح بذراعه للناس الذين لم يكونوا كثيرين في يوم الجمعة هذا ولكنهم كانوا حقيقيين. (لم يكن نظام تأجير الناس قد ابتدع ورسخ بعد، بخمسة وعشرين قرشاً في الأول ثم بالتالي بخمسين قرشاً وجنيه حتى خمسة جنيه عند زيارة نيكسون، ولا تنظيم إجراءات المواكب واللافتات ولامظاهرات "الجماهيرية" باستنفار المصانع والمدارس في يوم إجازة مفاجئ ومضاعف الأجر).

رأيت الموكب الصغير يبطئ ويتوقف بالفعل لحظة عند الدوران. بنت صغيرة –أم هو ولد لم أتبين تماماً –اندفعت إلى السيارة واحتكت بها.

أشار الرجل الطويل، في حلته العسكرية، وانحنى يسال. وعندما اطمأن استأنف الموكب رحلته. وسمعناه (بعد ذلك، عدة مرات) يخطب بصوت مبحوح يرتجل ويندفع ويستحث ويستنجد مستميتاً ويهز القلوب. وكان يحس نفسه – بوضوح – مهددا.

قلت: لم يسأل عندما كنوا يخبطونهم خبط عشواء على مادة أجسامهم الحية وعظامهم، بغل ووحشية؟ عندما كانوا يضربونهم على باطن القدمين حتى يتورما، وهم مع ذلك يرفضون أن يقولوها: "أنا مرة" ولم يصرخوا من الألم؟ عندما قتلوا منهم واحداً ثم اثنين، وثلاثة، وأكثر، في الأوردي، وطنطا، والفيوم، والواحات، حتى سأل عنهم تيتو، وأصبحت المسألة قضية علاقات دولية؟

أين منا الآن – مع ذلك – هذا الصرح العظيم؟

وأين فيالق الشهداء الذين لا اسم لهم، من سيبريا إلى سيناء؟ من أندونيسيا إلى سجون الواحات والمحاريق؟ من الديسمبريين إلى كوميونة باريس، من دنشواي إلى صحراء أبشيهيت، من شوارع فيينا إلى ساحات فايمار، من سهول الغرب إلى سهوب أفريقيا؟ وكم سقطوا في الهاسيندات ومصانع النسيج من أمريكا اللاتينية إلى المحلة الكبرى؟

جحافل وفرق وفصائل باسلة وأجيال وراء أجيال.

قلت: أين منا من رأى الحرب الأهلية الأسبانية والمقاومة السرية المستميتة في وجه جحافل النازية؟ أين الفيلق الدولي؟ وأعلام "البووم" والاشتراكي الإسباني حمراء خالصة، والفوضويون أعلامهم حمراء سوداء؟

أين الشهداء من لوركا إلى كودويل إلى آلف التروتسكيين والجمهوريين والنقابيين؟ هل سقطت إلى الأبد هذه الأولوية؟ وحتى إذا عادت إلى تلك الرمال والصخور أتبررها من دنسها، وتبررها؟ بلا مجد، ولا نصر، ولا نصب، ولا اسم.

لا يمكن أن يكونوا جيمعاً قد ذهبوا، بلا رجعة ولا اثر؟

قلت بيأس: لا يمكن.

اليأس محيي، اليأس لا يميت.

ومراثي الأرض كلها لا تنفع.

ما نفع المراثي، أبداً؟

وما للتفجع من معنى.

حصان جيرنيكا المخصي المموه بخطوط ونقوش ملبس الصاعقة صدئت جنازيره والتوت مدافعه وانكسر قضيبه فاغراً فوهة صدره التي احترق حديدها، ساقاه، مكسورة سلاسلها، رابطاً يظن نفسه يركض صرخته صامتة إلى الأبد عقبان سينا تسقط على جثثنا المصروعة على غرة تنهش منها الزع الكلاب البرية تنازعها بشراسة غير محسوبة.

سمعنا من بعيد هدة سقوط القنابل خافتة مكتومة.

وعرفنا أن مطار ألماظة ومعسكراتها ضربت وأن الطيران انقطع.

وكنا كل ليلة إذا أصغينا جيداً سمعنا أحياناً أزيز طائرات غير مرئية ومهددة ذكرتني بغارات الطلاينة على إسكندرية من سنوات تبدو لي بعيدة جداً في متاهات الصبا.

في فناء مدرسة الإصلاح الخاصة في المنيرة تحت الشجرة الهادئة الضخمة في الصباح الصافي، كنت مع الطلبة والشباب الذين لا أعرفهم أقف في الطابور غير المستقيم تماماً إذ تسري فيه روح مضطربة وقوية. وبعد ثلاثة أيام من التدريبات أخذت بندقية وتعيين ذخيرة حية وصرفوا لي جاكتة وبنطلون كاكي مع حزام عسكري.

كأنما كنت، أخيراً، قد عدت إلى العمل الثوري ولكنه هذه المرة في نور الصبح، وليس تحت سجف الكفاح السري تحت الأرض. كأنما كنت أجهر أخيراً بما يجيش في من غضب وشوق ولا أنفس عنه فقط في الدعوة الملحة المبحوحة للعدل. كنت الآن أضرب –أو على وشك أن أضرب –في العلن، ضد اقتحام قاس، ضد اغتصاب لشيء لم أكن أعرف، إلى هذا الحد، مدى معزته عندي، وفي الوقت نفسه ضد ما أحسسته بغموض فوران طين فاسد تحت قدمي، ضد خروج لخبث كان قد كبت مؤقتاً، ضد انفجار لشهوات نهب وهبش كان قد دفع بها للاختفاء مؤقتاً، وتقلب ذلك كقه على سطح الأرض.

قلت لنفسي عبارة الأكليشية التي لا أجد أحسن منها الآن:

– "كفاح ضد غزو خارجي وضد انقلاب رجعي يدبر له في الخافء،ومع ثورة وطنية تتأكد يوماً بعد يوم، في وقت معاً".

قلت: "أليست عبارات القوالب الجاهزة منجدة؟".

كالحب.

ما أشد قالبيته هذا القالب الجاهز المكرس، ما أشد جفانه، لم يعد يعني شيئاً تقريباً، لكنه يخبئ في طواياه معان كثيرة، عنيفة بالحياة.

بدأنا التدريب على السلاح يومها في حوش المدرسة. وعرفت أن المقاومة الشعبية ليست كلاماً. كانت القاهرة بالليل مظلمة. كحل، وفي هذا الشتاء الدافئ كان الهواء الليلي يهب في شوارعها وميادينها ويسند القلب. ولولا أنني كنت قد حفظت -بعد مجيئي من إسكندرية -شكل ميدان التحرير وشارع سليمان لما وصلت، بالحدس وتلمس الأرض، إلى شارع جلال لألتقي بألفريد في "الجمهورية". قال لي: "هذا مكتب القائم مقام أنور السادات، وهنا كان يجلس صلاح سالم". ولم أعط هذا كبير اهتمام.

الملح يصلح الأرض، أليس كذلك؟ فإن فسد ..!

وإذا كان الملح شراً فإنه يغطي سطح الأرض.

كانت تسري في المحطة الفسيحة روح من الصمت والترقب. وقد بدا زجاج سقفها مرئياً لأول مرة تحت السماء الليلية، دائماً كانت تخفيه، بشكل ما، أنوار المصابيح الكهربائية التي تبدو كرياتها الآن مطفأة وراء دهانها الأزرق الكالح القاتم. صدر عن القاطرة صفيرة موجز عميق يأخذ بالمشاعر ويتردد له صدى شاسع، وينقطع على الفور. وعلى الأرصفة كان العساكر نائمين أو ممددين أو متكورين على أنفسهم أجنة ضخمة في الكاكي المشعث والأحزمة العريضة والأحذية الميري باهتة الجلد، بجانب أكوام البطاطين والعهدة العسكرية الملفوفة المربوطة بإحكام، بنية

داكنة. ينتظرون، بلا شك، قطارات السويس والإسماعيلية وبورسعيد وخط القنال ومحطات الشرقية.

أحببت أن أردد لنفسي قالباً آخر، لم أجد نجدة إلا فيه. قلت:

- بحري وشواطئي وصحراء وحدتي ومعاشقي وأرضي وترابي وعظام أجدادي. كلها في الدم.

هذا الحس المدفون بهذه الأرض البحر السماء، وناسها، كامنة ومدفئة، وهذا التمرد الكامن القائم أبداً، انتصاب القلب أمام الله.

أم أنه هكذا بالفعل تجري الأمور؟

وقلت: اسكت، اسكت يا أخي. كم مرة أقول لك إن الكلام تشويه لا مفر منه، وخيانة.

كانت قد وصلتني للمحطة.

قالت:أنا عادة لا أوصل أحداً أبداً للمحطات. لا أحب ولا أريد التوديعات، اللحظات الثقيلة التي لا نجد فيها ما نقول إلاكلاماً شائعاً مبتذلاً لا يعني في الغالب شيئاً.

قلت، باختصار: ولا أنا.

كنت قد انتظرتها -كالموعد المضروب -في قهوة متاتيا أمام المسرح. كانت عمدة القهوة قديمة رثة الشكل ولا أحد -لا أحد؟ - يعرف لها معنى. والأوبرا تبدو رواغة مخاتلة في الغروب المخايل من وراء أشجار النخل السلطاني وتمثال القائد البرونزي التاريخي على فرسه الصافنة يشير إلى لا شيء.

كانت قد قالت: "الساعة الخامسة والنصف تقريباً، أو يعني بعدها بقليل أو قبلها بقليل، ما يضرش". وكان موعد قطاري في الثامنة، وحينما استأثر القلق والتفوفز بي –كنت قد نظرت إلى ساعتي مرات لا عداد لها وكنت أجدها دائماً السادسة إلا ربعاً، إلا أربع عشرة دقيقة، وبعد أبد من التصبر وكبح العين، إلا إحدى عشرة دقيقة، ثم مرات لا نهاية لها: إلا دقيقتين، ودقيقة، وخمس دقائق، والأفكار والهواجس مستبدة –دفعت الحساب، وقفت على الرصيف، ذرعت مسافة العشر أمتار أماما القهوة مرات كثيرة جداً ومملة.

وعندما تهادت الفولكس البيضاء الشاحبة أخيراً في نور الغسق الخابي بسرعة، كان ذلك آخر انهار، بعد اصفرارة الشمس.

زمرت، فتحت لي الباب، قالت بغضب مداعب أو جاد لا أدري:

– لماذا وقفت؟ وتركت القهوة ؟ لماذا القلق؟ يا عديم الصبر! يا قليل الإيمان وتلاقيك ضربت عشرة لآلف أخماس في أسداس، وطلعت في القطط الفطسا.. يا قليل الإيمان.. ! أنت تعرف.. الناس تنتظرني الآن في البيت، تأخرت عليهم ولولا خاطرك عندي ما كنت جيت.

كنت أعرف أنها جاءت من عند صديق قديم لها يزور البلد بعد غياب وكانت، هي، تعرف أن روحي تمزقها الوساوس والتخييلات.

مقدرتها اللانهائية على الإسرار والأخبار.

وصلنا إلى باب المحطة فجأة، كأنما على غير توقع، وعندما أدركت ذلك همت بالنزول دون ترو، دون تدبر، في اندفاعات الحركة التي تأتيني بينما أنا مغمور بحلم أو بوحشية، لا أعرف تماماً ماذا أفعل. أوشكت أن أفتح باب العربة، آلياً، وأن أنزل.

ضغطت بأصبع ممدودة على كتفي قالت: هيه.. هات بوسة..!

أدركت مدى لهوجتها وعدت إلى شفتيها. كانت حارة ومنعشة طازجة وغضة، مرتجفة وراسخة في وقت واحد.

أرفض مع ذلك أن أتلقى وداعك. فليس لك عندي وداع أبداً.

أجيريني سيدتي فإني غريق.

أية طاقة في هذا الحب،متفجرة أبداً بلا انقضاء؟

كيف، والحياة تنقضي، يبقى؟

سحابة الكلمات –بجانب النيران المتلظية بألسنة حادة لا تمس – تبدو شاحبة، مفرغة.

ما زال العالم يحتشد بك.

في صراعات واعتناقات الحب التي لا تريد أن تنتهي.

ما زال قلبي يختنق بفيض حبك.

ماذا أفعل – وتفعلين – بهذا الدفق من الإعزاز واشوق والمباهج الساطعة في الذاكرة، حية، بأوجاع ما زالت كاوية؟

أهذه أيضاً من سمات العمر المنقضي؟

كيف أخفي عنك – وعنكم – عيني هذا الشيخ الطفل، الممتلئتين بالدموع؟

أي كيمي .. يا كيمي .. كيمي!

أكانت كل محباتي إرهاصات بحبك تنذرني به، أو تبشرني؟

في أية حيوات متعاقبة؟

في زمن سحيق كانت "الكوتر" تميل بشراعها الأبيض الوحيد على ثبج موج البحر المفتوح في قلب المينا الغربية، عميق الزرقة تحت نور القمر الصاحي، الحار، ونحن في طريقنا إلى الرملة البيضا، كان معنا البيرة والسندوتشات والجاتوهات، وكنا قد لبسن المايوهات تحت القمصان والبلوزات والجيبات، وما أن لاح اللسان الرملي الناعم الفضي حتى رمينا بالملابس الخفيفة في قاع المراكب وعلى مقاعده الخشبية، ورمينا بأنفسنا إلى الماء وتسابقنا حتى الحافة، تسلقنا الصخر الزلق المائي والمنحوت الرملي حتى الربوات الطرية المرحبة، وكانت صناديق البيرة وكرتونات السندوتشات قد حملها صبي المراكبي، ودار البيت آب الصغيرة، إبرته الدقيقة، بحرص،تدور بأهون خرفشة بعيداً عن الرمال، ولكننا كنا قد بدأنا الرقص على أسطوانات "بيزامي موتشو" و"كوانتا لاميرا" أو "بلومون" و"الكومبارسيتا" و"لي في تان" يعني "يا للزمن القديم"..!

أهذا كله حدث؟

أكن هناك، بنات وجدعان نوادي البنك الأهلي وجناكليس وباركليز والملح والصودا، وأصدقاؤهن وصديقاتهم؟ والكلام بالعربي

والفرنساوي والإنجليزي أو خليط منها جميعاً؟ والرقص والشرب والحب بلغة لا تحتاج إلى بيان؟

أكن هناك حقاً، بنات إسكندرية في عز الصبا، في غرارة أحلام الصبا؟

سعاد وسيلفانا وستيفو ذات الثديين الهائلين وديسيينا الرقيقة كالدمي وأوديت التي أحبتني وأنكرتني لأني أحببتها وأنكرتها، وآليت المنسرحة القامة المنسدلة الشعر وايفيت اليهودية المدورة الغنجة الممتلئة بالبضاضة والشبق؟ إسكندرانية مصرية حتى الصميم.

في ١٤ مايو من ذلك العام الحاسم سيئ السمعة أعلنت الطوارئ.

طرق على الباب شيخ الحارة العجوز، ليلاً، ومعه ورقة الاستدعاء.

كانت ثكنات مصطفى باشا -مصطفى كامل الآن -كلها للجيش، لا أبراج سكنية فيها، ولا مسرح مثلث عليه "ريا وسكينة" ولا مصابيح الشوارع الكهربية الجديدة الشكل. بل كانت تتناثر فيها العنابر الخشبية ذات السقوف الجمالون بالقرميد الأحمر التي تركها الإنجليز، والتي كانت تشبه عنابر معتقل أبو قير والعامرية، ومن مصطفى باشا ذهبنا إلى العامرية ثم إلى ثكنات الهرم، نقطة التجميع للمنقطة. وفي اللوري الذي كان يهتز بنا كنت أرى، على جانب الطريق ومن مسافة داخل الصحراء، معسكرات الجيش والحرس الوطني، تبدو بعدية وصغيرة وتيحرك فيها العساكر ببطء وتكاثف معاً، في عناقيد ملتفة حول

العربات الملقاة بلا صوت، كأنها لعب. وكانت عنابر الطائرات "السرية" – المبنية تمويهاً، على شكل بيوت لها واجهات فيها نافذ لا تطل على شيء – تبدو لي سافرة وخدعتها مكشوفة جداً. لكن الحماسة كانت تشتعل في نفوس المجموعة التي أسافر معها، جالسين على دكك طولية في سيارات نقل بضاعة عارية، جهزت، بلا شك، على عجل، لتأخذنا.. وفي محطة هاكستيب كانت القطارات رمادية شاحبة البياض في خلاء العتمة، عالية مقوسة الظهر صغيرة النوافذ، صامتة ومظلمة وكأنها لن تتحرك أبداً. وأخذنا عربة الدرجة الثانية الوحيدة التي خصصت لنا، بمقاعدها الجلدية اليابسة، بينما حمل العساكر لففهم وبطاطينهم ورموا بها من الأبواب والشبابيك وقفزوا إلى داخل العربات المطفأة الأنوار.

طبعاً كنت أغفو إغفاءات خاطفة دون أن أحس تماماً –في الطريق وفي مركز التوزيع في القنطرة –أنني أسرق لحظات غياب من نصف اليقظة نصف النعاس.

وإلى الموقع أخذت عربة BTR مصفحة ومعي مهندسان من دمنهور ومن سوهاج، وكنت أسوق العربة وشق النافذة العرضي الضيق أمام عيني يكشف لي شقا من الرمال البيضاء ونحن نخوض أمواجها الثابتة على جانبي الطريق المسفلت. وكنت أحمل معي أيضاً حمولة من دانات م.ط. أنقلها إلى الموقع.

قطعت هذا الطريق عدة مرات من أم مرجم إلى الختمية إلى متلا إلى بير تمادا إلى المليز والحسنة ثم عودة إلى الشرق حتى كنت أسوق وأنا نصف نائم تقريباً.

في ليلة الأحد – الاثنين، خمسة، سمعنا لأول مرة طلقات فردية بعيدة وضرب هاون. قلت: لا بد تمرينات. ولم أهتم كثيراً.

بتنا ليلتها في ثكنة صغيرة مهجورة، حيطان من غير سقف دخلت الرمال بينها في أكوام غطت أسمنت الأرضية تماماً وإن ظلت دافئة من وقع الشمس عليها طول النهار.

خطونا إلى الداخل من فتحة الباب الذي لا وجود له، نزعه البدو بلا شك فقد كانت تحت الحيطان آثار رماد أسود متفتت عن نيران كوانين قديمة: طوبتين رأسيتين تتسعان لحمل كوز الشاي الصفيح المعمول من علبة قها، أو للأبريق المسود بالهباب، إذا كنا مترفين ننعم بالمباهج حقاً.

وكان ضوء الليل مريحاً وناعماً، الهواء صحو منعش بعد وقدة العربة المحرقة طول النهار. الحس بفرد الظهر وتحريك الساقين ثم المشي عدة خطوات، فقط.متعة حقيقية مع إنهاك التعب وأرق السفر ليلاً جيئة وذهاباً وفقاً لتعليمات متلاحقة.

فجأة شاهدناها تمرق بسرعة خاطفة، من جحورها في الركن بين الحائط والرمل، أرانب جبلية كبيرة ولكن نحيلة مهدودة الجسوم. أما أبو النجا فقد صمم على أنها جرابيع وليست أرانب، ولما كان فلاحاً من

المحمودية فقد حمل كلامه وزناً لم يكن لا لكلامي ولا لرأي حسنين، فاقتنع به على أبو النضر، وضحكنا كلنا في الآخر.

أزحنا الرمال قليلاً وأشعلنا الكانون، أقراص الاسبرتو الجاف طقطقت على الفور وتوهجت النار البهيجة، وشربنا قبل الأكل ما خيل إلى أنه أطعم شاي شربته في حياتي، وفتحنا التعيين، علبتين بولوبيف وعلبتين عدس أسود وأقراص النعناع، سخنا الأكل، وشربنا تاني شاي وفردنا البطاطين ودخلنا فيها. كانت الخوذة والسلاح الشخصي وورق التواليت جنبي هي وحدها لتي تذكرنا بأننا في حرب وشيكة الوقوع. كنا واثقين من نتيجة اللعبة كلها ثقة كاملة، وكأننا في نزهة، انطلقنا إليها من الروتين اليومي، لبضعة أيام.

هل غمرني النوم الهادئ على الفور؟ وأنا أسير، من غير جسم، من غير ثقل، على الرملة البيضاء الساطعة، بين أعشاب جانبية جافة الشكل وكثة تنهض أمامي ربوات عليها حصى ملون في نور الليل، ومتكاثف في أكوام لا أسمع له مع ذلك خشخشة تحت قدمي؟ كأن هناك أنواراً صفراء باهتة مهتزة، هل هي شعلات نار الجاز الصغيرة في كيزان صفيح سوداء، تتخايل في الخيام الخيش الواطئة البعيدة، قائمة ومرقعة ومشدودة بحبال قصيرة جداً إلى أوتاد خشبية غليظة على تلة تنوس فوقها نخلات مائلات بعضها غلى بعض، متواشجة متداخلة السعف، وجمال نحيفة حادة العظام منيخة تحت النخل تجتر، رقابها الطويلة الهزيلة مقوسة قليلاً، تهتز.

وعند أول ضوء كان على أن أقود السيارة في الصحراء راجعاً إلى موقعنا وكانت مدقات الرمل لا تكاد تستبين لي وسط الموج الأبيض المضطرب.

تفجر العالم، انقضت علينا صواعقه، فجأة، دون أن نعرف ماذا حدث.

وبعد صدمة المفاجأة التي شلت وعينا لحظة،أدركنا طبعاً ما يجري، كنا عربة مصفحة واحدة في تيه الرمل الفسيح، وهبطت علينا "الميستير" رمادية مزمجرة تصفر صفيراً ثاقباً، وسقطت النابالم إلى يسارنا بالضبط على بعد أمتار قلائل،وتأججت بنار شريرة لم أر شيئاً في مثل خبث حمرتها، وأنا أنحرف إلى الرمل في دورة قوس واسع، أزوغ من شعلتها. دقدقت طلقات الرشاش المدوية في دوران الطائرة وهي تنزل حتى تكاد تصطدم بنا ثم تعلو في أزيز خاطف، عادت إلينا لاطائرة بجانب المدق الرملي، لم نحس الخدوش التي تركها الحصى والزلط الحاد في أيدينا ووجوهنا التي التصفت بالأرض، باستماتة، إلا بعد أن رمت الطاشرة بقنبلتها الثانية،سقطت بعيداً إلى اليمين، ورشتنا بطلقاتها المتلاحقة، وراتفت من جديد، واتجهت نحو الشرق.

قبل أن نصل إلى الحسنة في آخر النهار كنا نعرف الآن ماذا سوف نجد، ولا نكاد نصدق.

الرائحة المميزة أثبتت لنا. هبات في قلب هواء الصحراء الصحو – مع نفح الاحتراق ورائحة الدخان العطنة وبدء تحلل الجثث، والبارود.

كانت السيارة والمدافع والدبابات على جانب الطرق، وفي عرضها محترقة سوداء. وكانت انفجارات بعيدة، قوية الهدة، غامضة ومكتومة وغير مفهومة تماماص، رأيت أكياس سواتر الرمل المضغوطة المحشوة أمام المخابئ وقد تفتقت وانسكب من الرمل في كومات منسابة، من ثقوب محترقة الحواف مشعثة الاحتراق.

عندما وصلنا، أخيراً، كانت السيارات المجنزرة واللوريات مقلوبة ومضروبة والرادار أسلاك وأعمدة وقضبان متشابكة ومقطوعة وعلى الأرض شظايا وزلط وقطع حديدية مدببة ومعووجة، عريضة وملتوية وعلهيا هباب ضبابي كأنه مرشوشو من علبة رذاذ "سبراي" والحدران سوداء ومهدومة أحجارها متساقطة حيثما اتفق لها السقوط، الخوذات متناثرة على الرمل بعيداً، ومشهد الجنود –بعد ضربة المرأي الأولى – لا يكاد يمسنا، غير إنسانيين في موتهم، في تناثر أشلائهم، وقد أخذت تلفحنا الرائحة الرغيبة التي أصبحت الآن مألوفة، فوح الحريق والتحلل والبارود وعطن الدخان والقطع البشرية، تلفحنا وتمضي بسرعة، ومزق الكاكي يطير بها الهواء على الرمل الأبيض.

لمحت على البعد قول دبابات سنتوريون وباتون، عرفتها بعلاماتها: نجمة داود والحلقات البيضاء الثلاثة على الماسورة. كانت مدافعها مسددة نحونا، تومض فجأة في آخر هذا النهار ويتقد لها وهج حول فوهات المدافع الضاربة بثقل وتمكن، تتبعها رشاشات سريعة تكنس الأرض، تمسحها بمنهجية ونظام وصحو،على طريقة التمشيط خطاً وراء

خط. كنا منبطحين وراء أكوام الأنقاض، وربوات الرمل –وراء العربة التي أخفتها المرتفعات عن أعين الدبابات –دون أن ندرك، حتى، أننا قد التصقنا بالرمل، وجوهنا بين أذرعنا والخوذات قد أخفيناها تحت صدورنا إذ كانت لامعة وبريقها وحده كان عالياً وجذاباص للقتل، هدير الدبابات على الطريق يملأ الأرض في إيقاع الزئير المعدني المتصل.

كم بقينا في ظلمة الرمل؟

في ظلمة الليلة الأولى انطلقت قنابل الليزر المضيئة تعرينا، هجرنا العربة في آخر لحظة قبل أن تضربها القذيفة، وجرينا منحنين رؤوسنا إلى وهدة خصرية عميقة إلى حد ما وعريضة الحافة أخفتنا عن نور الليزر، واشتعلت العربة كأنها من ورق يحترق وغارت في حفرة فورية واسعة، ومرة أخرى وأخرى كانت دقدقات الطلقات السريعة تصنع قوساً وراء قوس من الثقوب على سطح الرمل تناثرت لها هبوات خفيفة متطايرة.

تنبهت في السكون المفاجئ، بعد الضجة التي أصمت أسماعنا، ووجدت يدي متقبضة على البوصلة ولفة الخريطة، هما شيء واحد خطفته م الـ BTR في اللحظة الأخيرة.

وجدنا المهندس أبو النجا مفتوح العينين مندهشاً قليلاً، وثقب مدور صغير في صدره أخذ ينزل منه دم نزر، وعلى جانب فمه خيط من الدم الأسود ينزلق ببطء.

كنا الآن ثلاثة، صول واثنين دفعة. ماذا كنا نستطيع أن نفعل؟ كل شيءكان مهجوراً حولناوصامتاً ومهدداً في صمته،حفرنا معاً

حفرة مناسبة بما وجدنا من حديد،وكنا قد أرهقنا تماماً من الحفر عندما قرأ زميلاي الفاتحة وقرأت ما أذكر من "أبا الذي .." بالكاد، أفلت منها عدة كلمات ولكنني ذكرت معظمها، ولم يكن مهما أنني نسيت بضع كلمات،ولم يكن مهماً أنني تلوتها دون إيمان. كنا فقط نودعه ونكرمه، وليس هو وحده.

أستأنفنا السير بالليل مدفوعين بقوة ما، بصمت. تتابعت الطلقات الكاشفة في ظلمة الحصراء على شكل خطوط حمراء مقوسة صاعدة من موقع إلى الشمال تقطع جوف السماء.

كم يوماً وليلة قطعناها معا؟

نسير ليلاً فقط، وننام – ما استطعنا – في النهار، في حفر وجدناها جاهزة وفيها عظام جافة، وحيوانات برية.. أم..؟ أو نلجأ إلى خيام العرب الذي قبلونا –غيرهم رفضوا بحسم –بشرط أن نخلع اللبس العسكري – لكنني لم أهجر الخوذة قط،في الليل على رأسي دائماً بعد أن سودتها وعتمتها بالهباب والدخان الممزوج بالجاز الوسخ من اللوريات المهجورة، وفي النهار بين ذراعي وأنا نائم أو أجالد النوم –كان الأوفرول قد تمزق من الانبطاح على الرمل والزلط، وكانت أصوات الطائرات المغيرة – حقيقية أو متوهمة، سيان –تئز في نومي، وكان حلمي بالنار السائلة على الرمل ينفضني ولكني لاأصحو تماماً إلا عند سقوط الليل.. في بير تمادا اختطفت نظرة، من الصخر، إلى الموقع في آخر ضوء النهار، كان جنود الدفاع الجوي ما زالوا جالسين على مدافعهم تماثيل جامدة وممزقة

الثياب، في غبش الغروب، لا تتحرك، سوداء، ظلا متجسمة محترقين بالنابالم.

من الحسنة إلى الميليز إلى بير تمادالى ممر متلا ثم شمالاً فغرباً إلى ممر الجدي وشمالاً مرة أخرى إلى أم خشيب وممر الختمية، ثم أم مرجم من فوق المرتفعات الصلدة الخشنة وفي بطون الأخوار، بليت أحذيتنا أولاً ثم الشرابات، ولففنا أرجلنا بخرق ملابسنا لاكاكي وربطناها بأربطة الحذاء وتهدلت الخرق الملفوفة حول سيقاننا بالتدريج دون أن نشعر.

في ليلة ما، مررنا إلى جانب الطريق المسفلت عند أم مرجم. لم يكونوا قد استقروا بعد، هاجمتني رائحة اللحم البشري الخامدة، التي أخذت أعتاد عليها الآن عطنة قليلاً متلبثة راكدة، بعد أن تبخرت عصارات الجسم الذي فوجئ بالنار وهو حي ثم تأججت اشلاؤه بها وتشققت العظام في الشعاليل المتقدة.

كانت الفاتحة و "أبانا الذي.." آلية الآن تقريباً، وإن لم يخف شيء من شحتنها، ووطأتها، على الإطلاق.

تفجرت حمم البراكين العضوية تساوق غير مطلوب تجاوب القصف بالقصف مآذن الجوامع الألفية وأبراج الأجراس المضلعة في الكاتدرائية مفكوكة مخرمة كأنها دانتيلا مشتعلة لا ينتهي اشتعالها.

عناق في الظلمة يدها مرمية على ظهري تحضنني وتستند إلى ليس خيالاً عيونها في عيوني ولا شيء إلا حلكة مطبقة ولكن هبات النسيم الكثيفة بحمولة مدنسة ومقدسة تفصل بيننا.

تجري العقارب شائلة الحمة طويلة ومسحوبة الجسم كأنها كلاب شائهة مصغرة جداً ملتصقة بالعالم السفلي.

كانت عربات التموين المضروبة والمهجورة هي التي أنقذت حياتنا، ملأنا جراكن البنزين الفارغة بالماء وحشونا المخلاة الكاكي بمعلبات قها وكانت بقايا الكانتين المضروب قد سقطت على الأرض كرتونات البلمونت والهوليود مشقوقة نصفين بثقوب مدورة صغيرة في خط مقوس قليلاً وأشلاء السلمون والسردين الذي تطاير زيته على الرمل ورائحة باقية من المدمس المدلوق، كأنها أثارة بخار النابت المسلوق على باب السيدة مع رائحة الصفيح المحترق.

بكرات الأسلاك الشائكة الضخمة، مشرعة السنان قنافذ حديدية عمياء هائلة البنطلونات الكاكي والألبسة العبك باهتة البياض وفانلات صعيدي من قماش محمر طويلة الأكمام منشورة لا تجف أبداً على حبل غسيل مشدود بين سياجات من الإبر الحديدية المسننة النابتة فوق الأسلاك.

موسيقى خشنة مهدرة الكمنجات مكسورة ملقاة بين الأنقاض على حجار مشدودة تنتظر الأصابع العاشقة العارفة.

ولأنني كنت قد عبرت هذه الطرق والممرات والمدقات بالسيارة ذهاباً وجيئة عدة مرات تبعاً لما جاءت به أوامر متتابعة وأحياناً متضادة من القيادة فقد كنت الدليل لجماعتي الصغيرة، ومعي البوصلة والخريطة التي لا فائدة كبيرة فيها، وكانت جراكن البنزين مملوءة بالماء طعمه

بالبنزين في أفواهنا الجافة فقد حرصت على أن نبلل شفاهنا فقط دون أن نجرع السلسال الذي له رائحة حادة، أما الأكل الجاف –اللوبيا والفول –ولاسلمون نأكله دون تسخين من العلب مباشرة فقد أبقانا أحياء ولكن الجوع كان مستمراً بلا انقطاع وخاصة في نوم النهار المضطرب. بالليل، في السير الطويل كان الجوع ممكناً لأن الترقب والتعب كان يحل محل الشبع، الإمساك كان يعذبنا وكان جهد التبرز – لامؤاخذة –عن حصوات حافة مثل بعر المعيز شاقاً لا يكاد يطاق مع ما يلزم من الحزق بالصوت المكتوم، وكنا نضحك مع ذلك بشفاه مشقوقة مؤلمة على أحدنا الآخر نهنئ أحدنا بالنجاح الكبير أو نعزيه حسب الحالة غلى المرة القادمة. ولكن الرعب الحقيقي في تلك اللحظات كان العقارب والحناش الصغيرة التي تنطلق فجأة تحتنا بسرعة خاطفة حتى بعد أن نكون قد حفرنا حفرة صغيرة في الرمل، لذلك كنا نفضل الصخر أو الحجر الصلب العاري، وكانت أسلحتنا فقط هي أيدينا وكل ما نستعد به سلفاً من صخور أو حجارة صغيرة.

صرخات الدبابة الحصان المرقط الجعران المبعوث من عمق الرمل الداكن خارجاً منه بندي ملوث ونجس أثداء متفجرة ومنتفخة ومدورة ولها حواف قاطعة على أجسام أنثوية مبقورة البطون وأبضاع مجتثة ما زالت منتصبة في توتر شهوة لن تبلغ مداها أبداً لن تقذف بمنيها المحجوز أبداً نصف وجه أزرق متورم مضروب مفتوح العين الواحدة نصف جمجمة محترقة عيناه وجانب من عظمها قد سال نخاعها في النار ولم تبق

منه في لظى الشمس إلا حشاشة، فاغرة فاها أمام كلاب خائنة خانت أيضاً نفسها. كلاب برية عاوية في العتمةالدائمة عواء مشروخاً وخائفاً ومستمتعاً بنفسه في وقت معاً. الكلاب. الكلاب.

مجرد الفرار في اتجاه غرب القنال التفافاً إلى الشمال أو إلى الجنوب وعودة إلى الرغب باستمرار بعيداً عن الطرق المسفلتة التي عرفنا أنها فخاخ قاتلة مكشوفة أمام غارات الطائرات المنظمة المدروسة، مع مدقات الرمل الملتبسة غامضة المعالم أقدامنا متورمة شديدة الإيجاع تنبض في خرقها المتربة الممزقة ونعرج ونواصل المشي بلا هوادة العطش يعذبنا وجراكن المياه بطعم البنزين أصبحت فارغة تقريباً، ولكنها ثقيلة الحمل وفيها أملنا الوحيد الذي أصبح رواغاً جدا.

أمواج الرمال البيضاء ترتفع وتنكص تمتلئ ثم تهوي وتمتد تمتد حتى المدى من غير حد من غير شاطئ، علينا أن نجاهد أن نخوض الموج الجاف حتى آخر نفس لا نغرق لا تبتلعنا هذه الأمواج.

أي كيمي، هل فقدناك؟ هل فقدتك؟ أنت القادرة على أن تذيبي في رمال جسدك الناعم المنيع كل الغاصبين وكل الوافدين وكل العشاق، فيك شيء لا يصدق، يتجاوز الموت والحب معاً، يتجاوز العداء، والعشق والاغتصاب،عنصراً فوقياً، لا اسم له، هو مع ذلك كل جسد أرضك المشتهاة الحمراء السوداء، الطين والصخر ومائية البحر معاً، وحابي القضيب العظيم المخصب يشقك،أبداً يسقيك ويجدد أمشاجك الممزعة الموصولة باستمرار.

مازلت أرى، في النوم، إنني أحضن جركن الماء ملأته الآن من العرب كأنه جزء من جسمي بل أغلى من الجسم نفسه. وكيف أننا، بعد ثلاثة أربع أو خمس ليل عبرنا مياه القناة السوداء، أخيراً، جنوب القنطرة، في لنش عسكري، كيف كان شغالاً وباقياً حتى؟ ما زالت قدماي توجعانني في الحلم وأسقط، على المل، من علو شاهق وعقاب هائلة معدنية الأجنحة تطاردني بأزيزه، هديد القنبلة الألف رطل، وطقطقة الرشاش "العوزي" تلاحقني.

قلت: الحلم مواجهة الحقيقة.

قلت: أنى يّكون الفرار في اليقظة، لأن المواجهة عندئذ لا تحتمل، في الحلم فقط تعود الأشياء غضة برئة من جديد وقد سلمت من ترسبات السنين، نقية من تلوث الذكر، ورجس الحسرة، خالصة من أدران التأمل اللاحق أو السابق سوءا.

كان الألم هنا بحتاً لا يخففه شيء، صاف، واللحظة حاضر لا سلف له ولا مستقبل.

سوف أقرأ في "أكتوبر" في ٢٧ فبراير ١٩٨٧ أنه قد "سقط زوجي من فوق "السقالة"، حيث كان يعمل مبيض محار ومات في الحال وترك لي ٦ أولاد قصر بلا دخل أو معاش. لقد أظلمت الدنيا في عيني بعد أن أغلقت أبوبا العمل في وجهي .. ماذا أفعل وليس هناك مورد رزق يعينني على تربيتهم. فهل أطمع في المساعدة "ماذا يهم إن كان

اسمها فايقة عبد الدايم أو صفية عبد الله أو فاطمة سيد أو شفيقة بطرس؟ ماذا يهم إن كانت تسكن بولاق، أو الغورية أو شبرا؟

قلت: ألم تمت الرومانتيكية بعد؟

قلت: ماتت.

قلت: تلك صورة..

قلت: ما الحياة التي تعيشها، تلك المرأة التي تنشر صورتها مع شكواها، برغبتها أم بطلب من المجلة لأغراض صحفية؟ صورة وجه غزل داع للجنس، بدون أن يقصد حتى،وفيه أيضاً خضوع مثير للشبق. أي نوع من الرجال تأخذ بعد موت زوجها،أتأخذ رجالاً؟ عابرين خشنين، معلمين أو أسطوات، جدعان عترة راجعين من البلاد العربية؟ أخوة عرب يقضون إجازتهم الصيفية في مصر المحروسة ويعودون بحكايات مدغدغة لحواس متثلمة؟ غلابة يعني بمقاييس بلادهم وليسوا من رواد ماريوت والميريديان؟ أم أنها لقيت الذي يستتها، واستكنت في بيتها بعد الشكوى، بالصورة، في الجرائد والمجلات؟

قلت: خفف من غلواء شطحاتك. دع الخلق للخالق.

قلت: كيف؟

في صباح يوم ٢ نوفمبر ١٩٨٢، مبكراً، رأيتها، كأنها غاضبة، لا تريد أن تحدثني. هل نحن في مطعم؟ في أوتوبيس؟ في المسرح؟ أجلس بجانبها لست غاضباً -على غير عادتي -بل بالكاد حزين. كان لها الحق في الغضب مني. ومرة واحدة نحن الآن في شارع كشوارع مصر الفاطمية،

أو تونس، مزدحم بالجوامع الجسيمة الشاهقة وسيارات النقل الصغيرة والناس، تنطلق أمامي في الزحمة وتحاذر الماء الوحل والبرك الراكدة فيها سوائل زيتية سوداء، بحركتها السريعة الخفيفة وجسمها المليء النشط برشاقة خاصة،تتباطأ قليلاً فتعود إلى،ونمشي معاً في وسط الشارع القديم، بين الدكاكين الصغيرة الضيقة، والأسبلة، والمخان العتيقة الضخمة البيبان، ونتحدث.

كأنها هي التي تصفح عني، في النهاية،وكأنني كنت واثقاً في دخيلة نفسي من ذلك،وحزيناً له مع ذلك،لست فرحاً به. الحلم ثقيل ثقل الأحلام ولكنه، حتى، لا يعي أنه حلم. كأنه مناجاة في عمق غائر من الروح هل فقدتها وهي الآن تعرفني؟ حسي أننا معاً، في قرار راسخ، حس منقذ. السعادة كاملة. في الحلم، في الحلم فقط،مهما كان فاجعاً وفيه مشاكل الأحلام المعتادة التي تعصر القلب، تسقط تلك اللوعة الراجعة إلى الفقدان، ومعرفة الفقدان.. تسقط معرفة الفقدان. تسقط ذاكرة الفقدان. لا يعود ثم فقد. أنت تحيا معها في داخل تعقيدات مشكلة ما، نعم، ولكن معها. وليس في وحشة الفقدان.

ليس في السماء تلك السحابة المتجهة إلى الموت.

أما في صباح ١٤ فبراير ١٩٨٤فقد رأيت أنها تحدث شخصاً ما، لا تعرفه، وكأنك مع ذلك تعرف من هن، وتقول له، بلهجة غنجة، وغزلة: "هو لعب عيال .. ولا يعني لعب عيال". ولكنها هناك، معك أنت،أنت لا تعرف أبداً ولم تعرف قط أنها بعيدة ومفقودة. نعم، أنت

تحس الغضب الآن، ولكنك تعرف أنها تثير غيرتك، عن عمد ربما، وأن هنا عملية من عمليات الحب المعقدة، وهذا كله طبيعي، ويمكن أن يحتمل، لأنها معك. الحس بالفقد ليس هناك، أصلاص. هذه نعمة وحدها، سعادة بشكل من الأشكال أيضاً.

أنت تنظر إليها وتقولك هذه مرآتي؟ هذه مرآتي؟
ولا أتصالح مع الزمن، أبداً.
أسترجع إذن ما لا يمكن أن يعود، إذا استطعت.
وحتى في لحظات النفاء والهوى تعرف غربتك.
"وجعلت نفسك على النأى تنطوي".

التهمة

"لم أدر من أهوى ولا أعرف اسمه
ولم أدر من هذا الذي ضمه صدري"
ابن عربي

استيقظت بعد ظهر الأحد

كأنما في روحي بقية من أغنية حزينة الصدى، من يدندن بها تحت هذه القباب المملوكية العالية، في صحن جامع فسيح؟

خمول اليقظة من نومة بعد الظهر، ونعومة الكسل.

كانت غرفتي دافئة ومقفلة على، ولكن هواء البحر الصيفي أحسه يضرب زجاج البلكونة مغلقة الضلف، نور العصرية المتأخرة يتقطر من خشبها الموصد، يوحي إلى بشمس بعيدة.

تراوغني إحساسات ملتبسة وتفلت مني، مشاعر. كخواطري، شرود وماكرة، لوائح مروادة سرعان ما تغافلني وتنسرب عني، أصغى إليها

ولكني لا أسمع شيئاً، أحدق إليها، بخواء كامل، ساهم القلب جياشاً بحنين لا موضوع له، ولا بؤرة فيه.

هآنذا أذن أعود فأهيم في غير واد، السأم، العقم.

لماذا كل التأفف؟ لماذا نفسي صريع الحيرة، والقلق غير المحدد؟

كآبة، غير حادة، وانقباض، بلا سبب. ضجر يعصر روحي، في دخيلتي عتمة مريبة لا تصل إلى الظلمة الحق، ولا تئوب غلى النور.

فهل أقول: "ما من سبل إذن إلى أن أخفف عن نفسي، ما زالت ثقيلة العبء"؟

أم أقول لنفسي، وكأنا أضحك على نفسي: "وله.. وله.. دا الموت حلو بشكل ..؟"

أقلب في ذهني مشروعات آخر بعد الظهر، دون أن أتحرك بعد من تحت ملاية السرير التي تغضنت والتفت على: أذهب إلى التيرو، في السلسلة، أصرب الحمام، أو سبورتند ألحق بآخر شوط، يمكن، وأتفرج على السبق. أو ربما، أسكر في أتينيوس، وحدي؟ لعلني أجد هناك -في أي مكان – أنطوان.أو فيليب نخلة؟ أو فتوح القفاص؟ أو أذهب أولاً للمنشية الصغيرة، ولعلني آخذ أوديت، ويمكن آليت ايضاً، إلى حفلة الساعة ٦ في سينما فؤاد. فيها إيه؟ فيلم اسمه ماري شابيدلين، سمعت إنه كويس.

قلت: أزور قريبتي في بيتهم جنب زنقة الستات؟

هل تتصور أنني أحبها؟ هذه المرأة البيضاء جداً، مكبوسة اللحم، مليئة الصدر، رفيعة الساقين، تحب أن تلبس فساتينها الساتان، بلا أكمام، مكشوفة عن ذراعين كالأفخاذ، حتة بتلو معلقة في دكان الجزار، لكنها والله العظيم مسلية، عندما تنظر إلى من تحت لتحت، وتسيل عينيها الضيقتين تسبية الوله والهيام، يا شيخ حرام عليك، اتق الله يا راجل في قلوب العذارى، وأفخاذهن.

لا، أروح قهوة كريستال أحسن، يمكن ألاقي عبد القادر نصر الله، ألعب معاه طاولة.

أو ماذا أفعل، إلى أين مآلي في آخر هذا النهار الذي لا ينجاب؟

كأنما حسي بذنب ما هو الذي يحفزني إلى الحركة، في أي اتجاه، ويقعدني عن الحركة إلى أي اتجاه، في نفس الآن، وما أعرف كيف يحط الذنب عين.. وكأنما انقطعت مني من قلة الصبر ووهن الحيلة وعدم القرار ونأي الاستئناس.

وهأنذا. مع شيخي أبي العلاء، أدندن بشجوي وفق ما يقول:

"أودع يومي عالما إن مثله إذا مر على مثلي فليس يعود، وأن حياتي للمنايا سحابة، وأن حياتي للمنايا تجو"أو شيئاً من هذا القبيل.

كانت أوديت إلى جانبي، على اليمين، أما آرليت فكانت تجلس على يمينها، عن بعد، في كهف السينما الهادئ في شارع فؤاد، المصابح الصغيرة الخافتة، على جدران القاعة المصمتة خفيضة الزينة، تشع، كريات مكتومة من الضوء الأصفر الباهت، لا تمنعني من أن آخذ يدها

وأضعها بين يدي على حجري وزحزحت يدها برفق،قليلاً قليلاً، حتى وصلت بها إلى توتري المشدود، مسته أولا بحرص، ثم استقرت بجانبه إلى أن أبعدها،هوناً ما، بأيسر حركة ما،أخفف وطأتها قليلاً يكي يؤوب الاشتعال المتقد الذي يشفي على الانفجار، إلى توهج هادئ لا خطر في حدته. أما آرليت فقد كنت ألمح في العتمة الشفيفة شعرها الطويل الناعم يكاد يخفي جانب وجهها الأبيض المستغرق في خيالات الضوء والظل المتعاقبة.

عندما خرجنا حودنا من وراء النبي دانيال، ثم العطارين، وراء أناقة البيوت والمحلات المضيئة في الشوارع الصيفية التي كان المرور فيها خفياً، متناوباً براحة، كانت الحواري الصغيرة بيوتها واطئة وقديمة، ولكن تبدو على جدرانها قوة وشدة أسر، باقية من سنوات طوال، وتحتها، ما زالت مهذبة وصامتة ورقيقة الحواشي، دكاكين مجلدي الكتب، والعجلاتية، والسمكرية، والفول والفلافل، والبقالين، وما زالت فيها رائحة العمل الجاد والخدمة المدنية وجدعنة الفقر والستر والسهر إذا تطلبت شروط المهنة، دون خداع ودون شطارة الغشاشين ما زال فيها كبرياء الفخر بالصنعة والخبرة وشطارة التجارة البلدي وشرف الحرفيين.

في فناء مفتوح ومكشوف دون سور، يضيء أرضه المفروشة برمل مدكوك مصباح البلدية المتوهج بأسلام النور المشتعل، كان العمال يتعشون، ورائحة البحر تهب علينا فجأة من تحت شجرة عتيقة، يسقط

نور الغاز على جانب من جذعها الضخم أسود الخشب، ويترك نصفها الآخر مظلماً حالك الجسد، كأنها منحوتة، فروعها الغليظة التحتانية مبتورة ناتئ رسيسها من الجسم العتيق، أما على أغصانها العلوية الرفيعة المهتزة، جنب النور الذي يتخلله، فأكاليل بعيدة من الورق الغض فاتح الخضرة.

كانوا فارشين "الأهرام" – أيامها لم يكن الحبر ينضح من على الورق – وعليها أكوام العيش البلدي العريض الساخن، رائحته الخصيبة تفتح النفس، وعلى الأرض أطباق صفيح واسعة غير عميقة يملؤها حتى الحافة الفول المدمس المحمر بالصلصة والكمون غارقاً في الزيت الحار، أعواد الفجل ذات الرؤوس الجسيمة المشعرة والأوراق الداكنة العريضة، يأكلون بشهية الصحبة الطيبة.

عزموا علينا، دون تردد، بأصوات متراوحة بين الجد والدعابة، بين كرم النفس وكرم الدعوة: تفضلوا..! تفضلوا..! طب والنبي، وحياة المرسي أبو العباس، لتتفضلوا يافندي أنت والمتمزيللات، أهي لقمة على ما قسم. احنا بنعزموكو بجد مش عزومة مراكبية يافندي، والنبي دا أكلنا طعم يا طعمين ..!

ورددت نصف ضاحك نصف جاد: متشكر ياسطوات، مطرح ما يسري يمري يا خوانا، بألف هنا وشفا، وخرجنا إلى شارع الخديو وأخذنا الترام المجلجل المصلصل المهتز، كأننا، في نزهة وإلى المنشية الصغيرة.

كانت في خيام الجيش الصغيرة منصوبة في ميدان سعد زغلول. في الجنينة، وتحت التمثال مباشرة، وكان العساكر بخوذاتهم المدورة المسطحة الحواف، والشورتات الكاكي النازلة إلى الركبة باتساع، والألاشين خامدة الصفرة تلف الساقين،تقف صفاً واحداً قصيراً، بطارية المدفع غير بعيدة، فوهته مصوبة إلى البحر، اللوري الفرود إنجليزي الصنع محمل بشحنة من العساكر واضح عليهم الإرهاق، والملل، الضابط الشاب يجلس على كرسي قش في الجنينية ينظر إلينا من غير اهتمام.

نشرت "البصير" في ٢٤ يوليو نفسه:

"اشتعلت النار في سيدة من سكان زنقة الستات، فأصيبت بحروق شديدة نقلت بسببها إلى المستشفى الأميري وتولى الأستاذ إسماعيل فهمي فرج وكيل النيابة التحقيق فاتهمت هذه السيدة إحدى جاراتها وفتاتيها الشابتين أ..وأ .. بالاشتراك مع أحد أقاربها وهو موظف جامعي بإضرام النار فيها ولكن التحقيق رجح أن المجني عليها كانت على علاقة مع قريبها المتهم ورأته يتردد على هذه الجارة، ويخرج مع الفتاتين عدة مرات للذهاب إلى دور السينما الراقية فظنت أنه يريد الزواج من إحدى الفتاتين فأقدمت على إشعال النار في نفسها غيرة منها على قريبها وانتقاماً من الفتاتين وأمهما، وما زال التحقيق جارياً".

سطا اللصوص على شركة ماكنات سنجر في شربين وسرقوا جميع محتويات المحل المذكور الذي يقع أمام دار البوليس، في اليوم نفسه، كان السجاد العجمي يباع في محلات نحمان ابتداءً من ٥ جنيهات،

والصحن الصيني بالورد مسلطح وغويط للسفرة بمحلات الغندور بـ ١١ قرشاً، و٧٥قرشاً للبيجاما الصيفي مزينة بالكردون و٢٨قرشاً مايوه صوف للبحر، و٣٠قرشاً قميص تريكولين بكم طويل، وكانت السهرة ليلتها الكوميديا الاجتماعية "سكة السلامة" إخراج إبراهيم لاما بسينما جوزي بمصر، في سينما مترو بالأسكندرية لم أذهب لأرى والتربيدجن وآن هاردنج يمثلان فيلم "وراء القانون".

وإذ يحط الليل تركبني الهواجس المعتادة، عندئذ، أنصت في سكون الشارع إلى أصوات احتكاك عجلات السيارات بالأسفلت، هل تمضي في طريقها، هل تقف أمام الباب؟ أقول: "ها هي ذي العربة الكبيرة قد جاءت لي"، عواء الفرملة المكبوح، يخيل إلى، أتوقع وقع الأحذية الغلية تدمر السلم، تتأخر، لا تأتي، لا شيء.

كانت أنفاسي قد تسارعت، أدرك ذلك الآن فقط، وكانت توجساتي خانقة ورازحة، أحس بالعجز التام، بالشلل في روحي، وانقضاء عزمي، وما يشبه أمام قضاء مرسوم محتوم.

كنت قد أعددت بيجاما، وقميصين نظيفين، وغيارين، وعدة الحلاقة كلها مع مرآة صغيرة وصابونة لوكس أيضاً والشبشب، ومعجون الأسنان والفرشاة، وأضفت كتاب شعر إنجليزي، فوق البيعة، احتياطي، لن يعترضوا على الشعر الإنجليزي، أظن رتبتها في حقيبة يد صغيرة مفتوحة وجاهزة. إذا جاءوا، عندما يجيئون، أكون على استعداد، أقه..!

قلت: ألم تمض ايام النشاط الثوري السري، وتوقع الحبس والاعتقال، ألم تمض، من زمان؟

قلت: من يعرف؟ الملفات القديمة موجودة، وإذا اشتغلوا عليها ..

قلت: حكاية قريبتي من كان يتصور؟ تحرق نفسها؟

قلت: ولكن حتى إن كان هذا، فهم لا يأتون. في هذا النوع من الحكايات بعد إنصاف الليالي، بل يطلبونك بورقة رسمية، وميعاد محدد، في وضح النهار.

قلت: من يعرف، من يعرف ماذا يمكن أن يحدث معهم؟

وفجأة أسمع الأقدام، تصعد درجات السلم، ببطء وقوة، ليست كثيرة. كان ترقب صوت السيارة قد فاتني. أصيخ السمع وقلبي قد جمد، ليس هناك أدنى خوف الآن، بل انتظار فقط. تستمر الأقدام صاعدة.. تتجاوز بابي، وتخفت رويداً، أقول: من يأتي بعد الساعة الثانية صباحاً؟ أقول: طبعاً، جاري، جيراني، فوق، راجعين من سهرة، أو من عمل متأخر، أو من مشوار، ما الغريب في هذا؟

أقول: لماذا لا يذهبون إلى الحد النهائي في العنف؟ لماذا لا يطبقون على الضحية إطباقاً؟ لماذا لا تجدهم كالآلة المحكمة في البطش؟ عادة؟ أهذا نحن بشكل خاص؟ عندنا يذهبون إلى حد معين، ثم نجدهم يتوقفون.

أم أنهم بالفعل لا يتوقفون؟ في الأوردي، في أبو زعبل، في المحاريق والواحات، ألم يحدث؟

قلت: استثناء، ربما، خروج على القاعدة؟

القاعدة أن تراثاً خلقياً في الطفولة يحول دونهم والذهاب إلى الآخر.. أم أنه تعاطف أخوي غير متوقع، خجل وغير معترف به في أعماق النفوس المضطربة بحميا الأوامر؟

قلت: أعرف أن العجلة عندما تدور لها قانون فعلها الخاص، ما أن تتحرك التروس حتى تمضي إلى غايتها، بقوة دوران خاصة بها غير عاقلة.

قلت: ولكن في منتصف الطريق، هناك، عندنا نحن، شيء ما يكسر هذه الآلية المطلقة، عسكري عجوز، مقابل قرشين كويسين، وكلمتين حلوين، على الأرخص، هو نفسه الذي كان يضرب بالخرزانة بكل قوة، هو الذي يوصل رسالة لامرأتك – "للجماعة" قلت له – أو يعمل لك تليفون، ويقول لك الرد.

صحيح، شيء ريفي عندنا، ما زال.

تسلسل مراكز السلطة والسطوة قد ينزل بك، بل هو بالفعل ينزل بك – مادمت قد دخلت في دورة التروس – حتى آخر السلم، حتى هذا العسكري، أو حتى أشرس الوحوش التي تضرب وتضرب دون عقل، أحياناً، تقف فجأة، يحفزها وازع غير مفهوم، على الأغلب هذا بعكس القمع المنهجي "العقلاني" في الغرب.

قلت: من يعرف؟ قد أكون الآن غير مقتنع بشيء، بأية عقيدة، بأي حسم، ربنا يستر..

وعـدت أسمـع عجـلات السـيارات في الشـارع وأسـتنتج نوعهـا، وطبيعتهـا، ومهمتهـا، سـرعتها، وإيقاعهـا، ضـخمها أو صـغرها، حـتى سقطت في النوم. عندما أجد نفسي قد صحوت أتنفس بعمق، هو ذا يوم آخر، كأنما، يعني، في نور النهار لن يحدث شيء.

وأقـول: هـل هنـاك حقـاً بـين المعتـدي والضـحية – في كـل صـور العنف – علاقة تواطؤ كل صور العنف: بالكلام، بالضرب، بالتعذيب الجسداني، أو الروحي، بالفعل الجنسي، أو حتى بالتآمر. كأنها علاقة زمالة، بين الوحش والفريسة، تورط مشترك،كأن فيها نوعاً من ممارسة العشق،مقلوباً على وجهه، ربما ولكنه هناك هناك.

أقـادرة أنـت المنتهكـة، برضـاك أو برغمـك، علـى أن تجعلـي غاصبيك، طغاة وقتلة، هم أنفسهم، عاشقيك؟

بشيء ما في روحك – أو في أرضك – أنت فوق الظلم، وفوق الشهورة، وفوق الموت. بل فوق معنى الحب وجوهر العدالة.

ما عنصرك الخالد الأبيد الذي لا جسد له، وهو مع ذلك جسدك الأسمـر الأحمـر الرائـق، طينـك اللـدن، رملـك الخشـن، مـاؤك، وبقايـا غاصبيك عشاقك

أنت – بلا حول – مستعصية، نحبك، كما أنت، على احتضانك "حـابي"المتدفق أبداً بالمنى المخصب المهدر معاً، مهما روض وانحبس، يلم شعثك. ويحييك من جديد، من جديد.

كنت أمر الآن من شبه أقبية محفورة في صخور الدخيلة الهشة. تحت الأرض بقليل. الضوء يتقطر غليها من فتحات واسعة ولكن بعيدة، وأحس رائحة الهواء البارد، وهباته، كأنه آت من أجهزة تكييف هائلة غير مرئية، وصامتة تماماً.

أنزل على الصخر الخشن بسطوحه مختلفة المستويات، أتحدر، وأرتفع قليلاً، وأكاد أنزلق لولا أن تتشبث قدماي – من داخل الجزمة – بالصخور المشققة المبتورة.

كنت أخطو إلى جانب، أتفادى جثث البهائم المذبوحة، أتبين منها الجمال الضخمة والمعيز الرقيقة والعجول، مسلوخة وبيضاء، أحاول أن أتذكر بمن تذكرني، ولا أصل، وعليها أختام مدورة ومسدسة الضلوع، حمراء ناضحة على شغاف الشغت المبيض اللامع قليلاً.

وأنا أنزل إلى تحت، أكثر وأكثر، أحس أنني ألجأ إلى أمان مؤقت.

وكأن الأعرابيات اللاتي تركتهن على مدخل هذا القبو – الكهف – البدروم الطبيعي المنحوت في الحجر الرمادي، ما زلن واقفات ينتظرنني.

الأحزمة الحمراء العريضة تلف على الطون، فوق الجلاليب السوداء مشغولة بعناية وحب ومحلاة بقطع ذهبية كثيرة تصلصل وتومض على الصدور الناهدة التي أحسها قوية وصلبة، الحلقات التي تخزم أنوفهن المستقيمة مشرشرة الحواف، الشفاه السمراء موشومة بخط أزرق داكن في

السوط تماماً، قلت: ما طعم القبلة منهن؟ قلت: لن أعرف قط، مع أنني أعرف منذ الآن مذاقها ونكهتها.

كانت الجثة مطروحة أمامي، مغطاة الآن.

أذكر أنني رأيت الوجه الأبيض الممتلئ المحترق، والعينين اللتين تنظران إلّي بعمى، دون كلمة، تحمل اتهاماً لا يرد، والجلد الذي سقط عن ظهرها العاري في مزق طولية رقيقة وميتة وسوداء، تكشف عن احمرار وردي نيئ وبه خيوط متقطرة بيضاء من الصديد.

أهذا فعلى أنا أسال.

هي الآن مغطاة.

وأنا الآن جامد القلب تماماً، لا أحس شيئاً.

الملازم الأول بنجمته الذهبية على الكتف وأناقة سوداء في ملبسه، يكتب المحضر دون مبالاة حقيقية، روتين الأسئلة الجاهزة والأجوبة الجاهزة، تسديد الخانات، وإقفال المحضر في ساعته وتاريخه، هل لديك أقوال أخرى، وقد خلص من الأمر كله.

هل خلصت؟

هل هناك أبداً خلاص؟

كان الولد، وحده الآن، يأكل من الفلافل المبسوطة حباتها مدورة بنية فاتحة على ورقة جورنال، ورغيف العيش مفقع يابس القشرةو يكسر منه لقمة محموشة بالنار وراء لقمة، تحت الشجرة الغليظة، لم أر إلا الآن

هذه الفسائل الدقيقة الخضراء الرفيعة تنبت، قريبة من الأرض جداً، من تحت نتوء من بز خشن غليظ مبتور، أتعد هذه الانبثاقات الغضة بحياة تظل مهددة،أم سوف تدوسها الأقدام سراعاً؟ هبات ريح البحر، رائحة اليود، بينما السيارات تمرق جنب الحوش، وراء العطارين، وعربات الحنطور تجلجل بأجراسها رفيعة الإيقاع.

إن كل على الحب القديم.

فما زال عفياً،وعصياً على الشبع.

قلت: لا فائدة.

قلت: أعود بإذن إلى الدخيلة، أما زالت جمال الهجانة واقفة تنزل بأعناقها الطويلة المتسايلة ترتوي من الماء المتجدد في أحواض الحجر الأنتري؟

كانت المانيكان من وراء زجاج الفترينة في شارع فؤاد، عارية، مفاصلها شقوق دقيقة واضحة، عند الكتفين، فوق الساقين، في منتصف الخصر، وعند التقاء الفخذين، وعند الكفين تمدهما إلى أعلى في حركة إغراء خشبية ثابتة الأحداق، شعرها الأشقر الجاف ميت اللمعة، ربوة فرجها مسطحة مسدودة كاملة العقم.

وكانت تصرخ.

صراخاً ثاقباً متصلاً صادراً عن ألم لا يوصف.

لا أحد يسمع. لا أحد يبالي.

حبي سرمد باق.

وجاءت العساكر، سود الملابس، تسأل عني، تسدد بنادقها إلى السونكي مشرع عار مثقوب في طرفه، مسنون وحاد الشفرتين. تسير إلى، بخطوات ثابتة، رؤوسها محنية، بتصميم.

طعنة السونكي تنفذ، حارة، من غير أدنى ألم.

حصاة قلبي لا تنكسر.

التهمة قائمة، لا تزول.

مخلوقات ملكة عبد الملاك

"الحلم حقيقة ممكنة"

كان طريق المعادي على النيل يبدو موحشاً، في أول المساء.

النخل السامق الرشيق مائل على الرصيف وجدائل سعفه تنوس تحت جدران البيوت، دغلات الأشجار متكاتفة تحت سماء عميقة الزرقة. فيها بقية ضوء النهار، وسحاب ينزلق ببطء.

أضواء النيون تنعكس من أجزاخانة، وعيون مصابيح الطريق بيضاء مسدودة يقع نورها الذي لا يفيد أحداً على كشك سجاير وكتب ومجلات، به لمبة جاز.

السيارات تنساب على الأسفلت وثيرة صامتة.

كانت الأصوات غير واضحة ولكنها مقلقة تتجاوب من بعيد، والطيور الصلبة تنتقل من شجرة إلى أخرى، محددة قاطعة الجسوم، بلا

صوت. وكانت سيقان النخل السلطاني وسيقان النساء يبضاء، دافئة، موحية .. أمامي النيل واسع ومنخفض وغامض.

ورأيت الجزيرة في وسط المجرى العريض، عليها أعشاب وطحالب ملحية الشكل، حولها المياه الساكنة مخضرة قليلاً، شطوط الجزيرة المتعرجة تغرق وتطفو من بركة النيل الهادئة السطح.

تأتيني فجأة، من بعيدو طلقات المدافع، دقاتها ضخمة مخوفة الرنين تقرع القلب، تتلوها رشات متلاحقة من رصاص الآليات الحادة، والسماء المغطاة الآن بغيام رمادي، تقطعها سطوعات منشعبة حمراء وخضراء من قنابل الاستكشاف الضوئية الصامتة الاشتعال، تظل متوقدة لحظات وتنطفئ ببطء ..

كان يجري على الطريق، جلبابه الأبيض القصير يضربه هواء الجري على منتصف ساقيه، وقد ضهر مسدسه السميك منطفئ اللون على امتداد ذراعه، ولحيته طويلة قاتمة السواد هائشة حول وجهه الأبيض السمين، مر أمامي مباشرة، رايت أنه قد حف شاربه، أثر زرقة الحلاقة الوثيقة حول فمه. سقط بوجهه على بعد خطوات، دون أدنى حركة أو صرخة، على حشائش الرصيف التي كانت قد توحشت وطالت تحت شجرة التين البنغالي الجسيمة الهائلة.

كانت سيارة تاكسي واقفة وخالية تحت ملة واسعة منخفضة مصنوعة من القش البني الباهت، والمحرك يدور ويئز بانتظام.

في عتمة أول المساء، رأيت هذه المخلوقات الشمعية، مائلة على جنبها، ثابتة الجوارح، تطير تحت السحاب الذي بدأ يشف الآن من نور القمر المقطوع، تحملها ريح خفيفة، ومن بينها فينوس، حية، صغيرة القد، ينبض جسدها، شمعية التقاطيع وجهها أعرفه، وأحبه، كم لثمته، كم سقطت عليه دموعي، وقطرات مني.

كانت بالضبط تشبه التمثال لكنها لدنة القوام، ضوء كاو، كأنه برق الفلاش من كاميرا ضخمة غير مرئية، وقع عليها وانثال على جانب وجهها، وظل ساطعاً، أحرق الضوء جانباً من شعرها المعقوص الملفوف بعناية، وبدأ وجهها يذوب، وقطرات الشمع الثقيلة تسقط بينما الريح ما زالت ترتفع بها بهدوء وفي عينيها نظرة غائبة رائحة من الوجد، وحرقته.

طاحت تلك الإشارات، أفلتلت من يدي.

بلبلة لما كان قد سكن من طائر الأشواق.

هاجت الآن روحي، مامن مثاب أبداً لهذا القلق، لا تخبو حدمة نار النزوع، بلا منال.

الحلم صامت. مكنون.

انقض على، طائر داكن الخضرة كبير الجناحين ينزل إلى من على ريشه كريش ببغاء هائل، أعرف أنه عاقل وأنه ناطق، وأنه مدركي، ولكن الخرس مقامه، ومقامي.

ثم لبد أمامي معلقاص من مخالبه القوية المسننة ومشبوحا تحت الشجرة الضخمة، مدلى بجانب الجذور الخشبية النازلة من بين حرشة

الأغصان الأثيثة، صلبة تتلوى حول بعضها بعضاً لم تصل للأرض بعد، وقوية متينة العضل وصلت إلى التربة الأم ونفذت من الجثة البيضاء الراقدة على وجهها منذ زمان بعيد أعرف أنها دافئة ما تزال.

كان الطير الكبير قائماً في نور القمر الذي تبدد الآن وراء سحاب أبيض مقطوع ينزع لونه إلى الرمادي الفاتح، وكان مقلوباً ورأسه ساقط إلى تحت كخفاش ضخم له منقار طويل معقوف الحافة، حاد الطرف. وكانت رئتاه متدليتين، من صدره المفتوح، بجانب جسمه الساكن ملموم الريش، تنبضان، لونهما داكن وغشاؤهما لامع وأملس، والقلب يضخ بينهما، مكشوفا في الهواء، صغيراً بشكل لافت للنظر وغريب.

كان مستكنا ومتربصا في وسط خضرة الأغصان المتراكبة المنبعجة المفاصل، والأوراق الملساء الجرداء وكريات الثمار الصغيرة الحمراء القرمزية المتورمة بعصارتها.

ورأيت أن منقاره يضرب بانتظام وإصرار في يد ملكة عبد الملاك، كفها مفتوحة ومنبسطة، كأنه يأكل من يدها، وهي تنظر إليه لا تضن بشيء.

كنت أعرف ملكة عبد الملاك من المطبعة.

كانت تحفظ أقراص الرصاص وهي ما زالت ساخنة ذائبة تقريباً. حتى تجمد.. تضعها في خزانة مفتوحة لها أرفف متقاطعة، الحروف البارزة. المعكوسة على سبائك الرصاص فيها السجل الكامل لكل شيء، كأنها اللوح المحفوظ، وكانت ملكة عبد الملاك، دائماً وتحيط بها،

حيثما كانت، بقايا رصاص المطبعة وشظاياته الرفيعة المشطوفة بيضاء البطن، وحولها شمع الفوتوتيب الملفوف في أسطوانات كبيرة مسنودة إلى حيطان المطبعة وإلى خزانة الأرفف الخشبية وإلى جوانب ماكينات اللينوتيب العملاقة، والمتحركة التروس والصفوف.

كانت بشرتها زيتية ناعمة، وشعرها، في وسط تشابك المطبعة وازدحامه، طويل وقوي حالك السواد، وعندما تتكلم تحرك رأسها فيهتز شعرها كأنما تهب به أنفاس لافحة، وينزل بكتله الناعمة على كتفيها ثم يرتفع، له حفيف مسموع.

وكنت أذهب إليها كلما اضطررت إلى البحث عن إعلانات قديمة، أو بطاقات معلومات بائدة، أو تفاصيل الاحتفالات بمناسبات منسية.

كانت ملكة عبد الملاك قمحية اللون وبضة، مليئة كالموج، وجهها المدور كامل الاستدارة ودائم التقلب، له أشكال متغيرة في نور المطبعة الشحيح أو المتوهج.

ومع جسدها الطيع، المنيع، كان حنوها على راسخاً.

وكنت أرى صدرها قادراً وشامخاً، والثديين في السوتيان المحبوك، يعطيان حساً بالنصح الراضي المرتاح.

قالت لي: أنت المتقلب الذي تطير به الأهواء والأشياء. أما أنا – كما ترى – فإني ثابتة. سوف تجدني دائماً. هنا.

وسوف تقول لي: أنا، في أي مكان، في أي وقت، لك، ملكك، فهل يمكن أن تقول لي "تعالى" ولا أجيء؟

أين ملاكي الغضوب شاهر السيف على مخلوقات الشوق.

أحسست الريح تشتد قليلاً، وضوء القمر يغلب السحاب.

رست، أمامي، مباشرة على الكورنيش، آخر مركب طالعة، إما أن أحلق بها أو أن يضيع كل شيء.

نزلت بسرعة على سلالم مزدوجة متقابلة، صاعدة وهابطة، وشيش الكهرباء مسموع وقتها محسوسة، وكان الناس كثيرين حولي والأنوار من سقف النفق متتابعة ومحددة ومجسمة، وكان النفق يدخل بي ويغوص في قلب صخر الجبل هنيراً جداً ومدوراً ولا مع الجدران، ثم وجدت أن السلالم المتحركة قد خرجت بي إلى النيل، والنفق ما زال يغوص، يشق الموج الذي أحسسته يرتطم بالجدران الناصعة المبلطة، ارتطاماً هيناً.

لكن المركب ما زالت بعيدة، ومهما جهدت في الجري صاعداً ونازلاً على الدرجات الحديدية المضلعة أجد نفسي ما زلت أرواح الخطور في موقعي.

مشتاق على الدوام، من غير أشواق.

حبي طلب دائم، ومخافة انقطاع، بلا هوادة. والقلب جزيرة محاصرة.

فرغت من الحنين إلى الصوات، فرغت من التبرم شوقاً بارحت أشجان الصبابة والحنان، بارحتها.

دورة كاملة، أخرج من درج النفق المتحرك لأجد نفسي مازلت تحت شجرة التين البنغالي، في متناول منقار الطائر الأخضر الضخم.

وقد اختفت ملكة عبد الملاك.

بادرت بأن أسلمت لطائر المستحيل نفسي، دون مطالبة، دون لجج. وليس هذا كسبي ولا دأبي.

مد إلى منقاره، وأخذني، أطير معه في باطني، في باطنه، معرجا عبر عصف السماوات العلى.

حتى فشى بصري الضوء الباهر الذي لا مثيل له، كانت قناديل الزيت السماوي معشة كوجوهن الملائكة، ولا حصر لها، تملأ السماء، والأرض وما بينهما، ساطعة من الأزل.

هكذا يأوي العاشف إلى ما بين قدمي العرش الوهاج.

احترق قلبي بالنور، وكان جانبه الأيمن يسقط عني، مصهوراً.

النور ظلمة تكتنف الروح، كاملة. بلا رحمة.

وليس هناك إلا مخلوقات الأشواق، متجسمة، تطير حوالي، تذوب وتتجدد بلا انقاطع، تملأ الداخل والخارج، وحدها.

رقصة الأشواق

"وطيور العشق جثوم"

كنت أربيها، على سطح البيت القديم، في السندرة، في البكونة المطلة على شارع ابن زهر، في راغب باشا، وفي الجانب التحتاني من مكتبتي الصغيرة ذات الرف العلوي والضلفتين الزجاجيتين.

كان منها الأبيض الشاهق متقد البياض، ممتلئ الصدر، هديله عميق. ومنها الذي يضرب ريشه الهفهاف إلى زرقة وحمرة متقبلة مترقرقة، منقاره طويل ولكنه صموت كتوم.

ومنها البني الناعم، نكهة لونه إفريقية ساخنة وله غنة رتيبة الإيقاع.

والأسود المرقط الذي تسري في طوقه المنقوش شبهة رمادية مائلة إلى البياض، يتخطر بثقل ودلال، ضخماً بطيء النغمة.

وكان منها الأملح المنقط خفيف القامة دقيق المنقار، طويل السيقان محمر جلدها، يتنزى ويتوثب تطير به النسمة.

ومنها موشي القدمين بزغب صغير يرفرف، وحده، إذ يهب به الهواء.

ومنها نحيل القد، مسحوب بري الجسم كأنما شفه هوى مشبوب..

لكن مياه عيونها، جميعاً، كانت صافية وعميقة، وكأنما فيها غضب نقي.. وكان ريشها الصغير يتناثر حولي، على الأرض بين الكتب، تحت الكنبة، في كل مكان.

ويجف زبلها الأبيض اليابس على الأرض، على المائدة الرخام المستطيلة الدوران، فوق رف المكتبة وفي قاعها، وحتى على السرير، فأجمعه وأبيعه الرخص للرجل الذي يمر تحتن في الشارع وينادي: "زبل الحمام".

كانت تحوم منذ شق الفجر. وتطير، تخبط خشب النافذة وزجاج البلكونة، ثم تطير وترفرف بحرية، وتعود إلّى في وقدة الظهر فتستكن إلى حماي.

وكانت تسبح بهدوء، دون صوت، موجعة للقلب، في سماء ليالي القمر، طارت الآن عني، هل تعود؟ هل تعود؟

بحثي – حتى الآن – عقيم.

بعد سنين طويلة رأيت حمامتين بيضاوين في ريشهما نثار البني الفاتح، تبختران بثقة وتمكن في دكان ضيق في شارع الصليبة، حاشدتي

الصدر، تنقران أرضية الدكان دون تعجل،، ورأيت فجأة أن هذا الدكان الفقير الغريب له أرضية ترابية، وكانت فيه رفوف خشبية مسودة اللون، معظمها فارغ، وبعضها عليه ما يشبه الخردوات، وعلب صفيح كبيرة مقفلة وصدئة، وزجاجات بيرة وويسكي وكوكاكولا فارغة مرصوصة، وكتب مدرسية مستعملة وكراريس وكشاكيل وأقلام رصاص وأقلام حبر جاف، وبالونات منفوخة علاها التراب، وعجلة بسكليت دائرية ضخمة مما يستخدم في السيرة الموالد، واحدة، وحدها، مقطعة الأسلام، وبكر ولفف خيط أبيض وأسود وحلويات وكراملات ومصاصات وبراغيت الست في برطمانات قديمة الشكل وإبر الوابور والأقماع وأكواز اللوف الأبيض الخشن الفتائل والليف الأحمر المتهدل الخيوط، وصناديق خراطيش السجاير الملونة ورصات كليوباترا وروثمان جنباً إلى جنب مع علب هوليود وكوتاريللي وبحاري الفارغة، روبابيكيا قليلة ملقاة على الأرض، نفايات البيوت طشوت مخرمة وحلل مطبقة ومرايات مكسورة، وأكوام مجلات عربية وفرنسية قديمة بهتت أغلفتها الصارخة الألوان وتمزقت،وحوض حمام من الرخام المشروخ الذي كان فاخراً في زمان العز، منزوع الحنفيات والمواسير الآن،مسنوداً إلى الحائط المزدحم.

والرجل، بجلبابه الرمادي، ولحيته الرمداء الهائشة، جالس على كرسي حمام صغير يصنع لنفسه الشاي في إبريق من الصاج الأزرق المدور على سبرتاية صغيرة، يبدو هادئاً، سارح العينين في أفق خاص به وحده.

رأيت الحمامتين تأتيان إلى قدميه الحافيتين تطويان ساقيهما تحت الأجنحة وتستنيمان إليه، وقد انسرح الريش على الجسمين الممتلئين.

صبحت عليه، واشتريت منه نسخة من ألف ليلة وليلة قديمة من أول القرن،وناقصة جزءاً وأغلفتها مفقودة، ودفعت بعد طقس الفصال الشكلي القصير،جنيهاً واحداً، وعندما سألني هل أكتب للإذاعة؟ وقلت له نعم،خصم لي عشرين قرشاً مرة واحدة على سبيل التحية والرجولية. قلت: أين حمائم أشواقي الطائرة؟

نهض الحمام، يتأرجح وجسمه يهتز بين أقدامنا، وخرج إلى الشارع لكي ينقر حبات طماطم شديدة النضج تفجر جلدها الأحمر الضارب إلى صهبة قانية عن لحم طري متهدل به بذور بيضاء كبيرة، كانت الطماطم ملقاة تحت جذع شجدرة سنط عريقة خشنة مشققة اللحاء، صاعدة إلى ما فوق البيوت القديمة المائلة على أحدها الآخر، مبنية بالبغدادلي والطوب الأحمر الذي اسود الآن بين عوارض الخشب المتقاطعة ظاهرة للعيان، والشجرة تعانق أختها الصاعدة من حفرة واسعة عميقة مازالت في الحفرة قد غاصت وجفت في تربتها وفيها ربوات قليلة الارتفاع، ووهدات ترابية تصلبت ويبست، سوداء طينها لا يجف تماماً ولكنه ليس مبلولاً تماماً، جذور السنطتين التوأمين تضرب في هذه الأرض، عضلة عبلة معراة، خشبها بيدو أكثر غضرة وفتوة من خشب جذعي الشجرة الواحدة المنسمة اثنتين، والأغصان الفينانة تتشابك فوق سطوح البيوت المتداعية، وتتراكب وتصنع ظلة خضراء عريضة.

قلت: لماذا تسحرني الشجرة الوحدانية المشطورة، غير منفصلة؟

قلت: هل لأن الحمام السمائي، بعيداً، يقطن أفنان هذه الشجرة التوأمين، حضنها وأعاليها، جاثماً فيها جثوم الموت؟

أما الحمام الأبيض الأرضي الشكل فلم يلتفت إلى أدنى التفات.

قلت: المحبة تحتمل كل شيء.

قلت: حانت ساعة تلفي، تهتكت روحي شوقاً.

كنت على شاطئ كامايين، أطل من شرفة أوتيل دي فرانس العريضة الفخمة، أمي على المائدة الرخامية كأس طويل من ماري الدامية على حافته لذعة الفلفل الحادة، هواء المحيط يهب على من خليج غينيا بسمائه المنخفضة المحلمة بسحاب أبيض سرعان ما سوف ينجاب عن حر مصوح.

الصخور السوداء ناتئة الحواف عميقة الشقوق شواهد ماثلة أبداً على اهتياج بركان قديم وسفوح الرمال تتهادى بيضاء طحين ناعم مسحوق جيداً تتلألأ فيه نقط متوهجة مثل سن الإبرة، وأشجار جوز الهند سامقة يميس سعفها بالثمار المحمية المكنونة في العلاء.. الخليج الاستوائي في بهرة الصبح هادئ موجه لازوردي كأن صفحة الموج سماء توأم أخرى مبسوطة تحت أختها حتى شفرة الأفق، لا تكاد تترقرق.

شباك الصيادين مفرودة على حجر الكورنيش المنخفض، مغسولة تفرح برائحة السمك وقد ركعوا تحتها، بأجسامهم الناحلة المفتولة،

وطيات اللباس الإسكندراني الأسود ملمومة تحت جذوع السيقان الجافة، يرتقون قطوعها بإبر طويلة تومض عندما ترتفع وتنخفض بين فتائل الشبك.

شبك حبيبي شبك.

القارب الصغير، مشدود الأضلاع، يقف على سيف البحر، عند الخط الفاصل بين الرمل ولاماء، يمسك دفته القرد الإلهي العاقل، مدكوك البنيان.. القامات الأنثوية الرشيقة، أراها، في عكس النور، مجسمة سوداء، والنهود ثمار أخرى لامعة الجلد ناهضة بعصارتها الكثيفة المتماسكة.. تتزلق الحمائم الداكنة منسابة، بالكاد تماماً على سطح البحر.

هل نزل البحارة بخناجرهم العريضة وذهبوا بهن إلى سفينة أسابنية جوانبها مصفحة برقائق الذهب، غارقة محملة بكنوز القراصنة القدامي. ماذا يهفهف خلف القلعة العريقة التي لا يكاد الزبد النقي البياض يرغي تحت سفحها؟

أراه من فوق حافة ماري الدامية وأوقن أنه ليس ثم شيء.

كل شيء سوف ينقلب بين لحظة وأخرى إلى نقيض ما يبدو عليه.

القارب السحري مركب سمك فقير عاد به الصيادون إلى المرسى بعد كدح ليل طويل في قبضة الموج، تتزاحم بنات الأنفوشي وبحري ورأس التين عليه، والستات التخان بالملايات السوداء النالزلة من على

الأكتاف المدورة تبدو منها قمصان النوم غير النظيمة تماماً عارية الأذرع والنحور، ليأخذن منه بالرخص شروة سمك ملء القفة ملء الحلة من السبارس والشر الصغير، أو ملء الكروانة جمبري عاجي الجسد.

السفينة السحرية شراع مبسوط في نسيم الصباح، فرد جناح حمامة بيضاء، تحلق وحدها في سماء الإشارات، سبحة صبابة، وجد لن يبقى منه أثر.

أترقب، وأتوجس خيفة من الزوال والدثور، ملهوفاً أمام دوران دراما لا سيطرة لي عليها، لا أدري عم تتمخض في أية لحظة، أحس رفرفة في داخلي لا أعرف أن أهدئها ولا أريد أن أطامن من روعها.

وأعرف أن هذا كله قرين البلي وأن العطب لا محالة مدركي، والتهلكة.

هأنذا في سخونة أحشاء العالم. أثداؤها المليئة ترضعني سلافة حارة ثقيلة، صبوات تذهب إلى البطن الخصب الوثير والأرداف العريضة السمراء، أما الخمر المشعشعة الحق فليست مرئية ولا محسوسة، ولا تنبع إلا عن هذا الغنى الفاحش الذي أصل في نشوة سكره إلى غايته، وما لهذا الأمر من غاية ولا حد، فما من لذة أعرفها إلا وراءها أوفى منها وأتم. متهات الفتنة والمعرفة لا أرعوى عن الضرب في مسالكها ولا أخشى الهلك فيها.

مددت يدي وملؤهما لذاذات الهوى وعلقم الموت معاً، منار عقيدتي بلا خجل، هفيف الحمام الذي يغيب وما بلغت شيئاً، ظلاله

قطعتها حافة الأفق الحادة، سكران من الملء وسكران من العوز، سكران بالتحقق وبالطلب، وبالنعمة وطعن الحرمان، سواء، بلا صحو.

لماذا أحببتك. لماذا ؟

عمدة الحب اللقيا لا الفراق.

لكني لا أفيق من سكري، بين الوصل والنفرة، وما من إفاقة لي على القربى، وعلى البينونة، معاً، وما تزول أشواقي عند التلاقي والمعانقة، بل تفيض.

فأين المفر، وأين الملاذ؟

قلت لنفسي: لا يكون لك، منك، شيء.

وكنا نعبر كوبري السلطان، الأنوار العالية تتعاقب وتسقط على حجرها سيارتها الفولكس واجن، وتضيء في ومضات متلاحقة. لحم فخذيها السمراوين، مفتوحين قليلاً، حاشدتين بشهوتي، انحسر الفستان قليلاً إلى أعلى علبة السجائر الى ستايفيسنت وشريط الكبريت منزوع الغلاف، ألتقطها من الوهدة الطريقة المتحركة أهون حركة في تركيزها على قيادة السيارة والتحكم فيها وأشعل، وأنفث ملء الصدر من دخان أول احتراق، وأعطيها سيجارتها مبللة أهون بلل بأثر نية قبلة متطايرة من على الحافة المستديرة.

وعندما عبرنا الكوبري كان الشجر المتكاثف على رأس النيل يأوي النقط الغافية البيضاء مطوية الأجنحة.

أنوار الشط الآخر تلوح وتختفي تحت سعف النخيل بين المئذنة والمسلة الصغيرة الخجول، منسية تقريباً.

وعلى ضوء النجوم رفعت إلى وجهها الخمري المدور، قناعاً مصقولاً كامل التدوير، لا تهتز فيه خلجة، كانت قطرات الدموع تنزل من عينيها الواسعتين المفتوحتين، كل طرة مدورة ومنفصلة وتنزلق بنعومة على صفحة الخد وتنزل إلى منبت النهدين المفروشين براحة في فتحة البلوزة الواسعة، دون صوت، دون كلمة، كأنها وحدها تماماً، وما زالت تمسك بعجلة الفولكس واجن وتسيرها بحركة آلية.

رمقتني لحظة واحدة، بنظرة حب لا مثيلب لها، سرعان ما عاد القناع نظيفاً كامل البراءة.

رأيت أن أشواقي سوداء الجسوم، يرقصن حوالي، عاريات الأثداء، والموسيقى الحوشية تحتدم ثم تختنق، أوصالهن تعلو وترتمي، أشرعة أجسادهن مفرودة عصف الهشوات، تهب بها الأنواء وتنام على الربخ الرخاء.. يتمددن ينتصبن، متورات بين أنقاض أحلام غابرة مليئة بالدموع. الأرض تثوخ تحت الأقدام الراقصة ما تكاد تلمس تراب الغيطان المحترق المنثور بأوراق الذرة الجافة.

ينحين على قبور الآلام البائدة. كأنما بحنان، ثم يقمن لحظة، شواهد ماثلات في فضاء سحيق خاو، ثم تنهار أحجارهن.

شعرهن الوحف كثيفاً تغوص فيه الأيام القديمة وتعود.

لأشواقي أجنحة طويلة تتماس وتتراكب وتتحاضن، لحمها غض وقوي ومتامسك.. يدرن الآن حولي في حلقة مقفلة، وجوههن زنجية الشفاه، تأود أرادفهن حاد السرعة متلهف خاطف التحولات، ثم هو رضي ساج يكاد يكون صامت الرقرقة.

طيور الشعف راسية في وسط الحلفة، جاثمة، ثابتة، ثقيلة كالصخر وصافية العيون كالماء، ومتقدة الأحشاء.

ثم وجدت أن شجرة البانسيانا الضخمة الوارفة التي تقتحم شرفة البيت القديم وتغرقه بغصونها العريضة المثقلة، تحترق.

النار ساطعة ولامعة ولها وشيش وصوت مغرد.

النار على أطراف الشجرة فقط، تتقد في شعل دائرية صغيرة ملمومة على نفسها.

أصب عليها الماء بسطل أحمر من البلاستيك كنت وجدته على ذلك الشاطئ في حلمي الآخر.

كنت قد طلبت الطافئ لكنها لا تجيء.. المياه القليلة تسقط على جدار البيت الذي سخن الآن من النار، أحس وقدته تصعد إلى المياه لن تكفي للإطفاء،النار سوف تمتد وشيكاً وتلحق ببقية الشجرة وتدخل إلى من الشرفة وتنفذ إلى داخل البيت، ماذا أفعل.

ماذا أفعل؟ هسيس صوت النار لا يكف، والرغيب أنها ما زالت مضمونة في كريات مدورة متلظية باللهب حول أطارف الغصون فقط، كأنها شارشيب مشتعلة على ضفائر النبات المهتزة الطويلة.

صوتها ملح بثبات واضطراد. صوتها هو وحده يعلو، تقترب، بنذير لا يطاق.

قلت، أصاحب سيدي الجنيد وأمشي على خطاه: إنني مكثت فترة وكأنما السماء الأرض تبكيان لحيرتي وحبي، وحمائم أشواقي تطير عني، ثم أصبحت وكأنما أحترق من غيبتهما في، وهآنذا الآن أسكت، لا أقول شيئاً بعد عن البكاء ولا عن الحريق ولا يبقى لي إلا الموت الثاني يقين العطش.

١٤ مسري ١٧٠٥

٢٠ أغسطس ١٩٨٩

إدوار الخراط

روائـــي، وقصـــاص، وشـــاعر، اشـــتغل بالنقـــد الأدبي والتشكيلي، وعمل بالترجمة، كتب للإذاعة، وقام بتحرير عدة مطبوعات.

– ولـد في ١٦ مـارس ١٩٢٦ في الأسـكندرية لأب مـن أخميم في صعيد مصر وأمن الطرآنة غرب دلتا النيلو وحصل على ليسانس الحقوق في ١٩٤٦ من جامعة الاسكندرية.

– عمل أثناء الدراسة، عقب وفاة والده في ١٩٤٣، في مخازن البحرية البريطانية في القباري بالأاسكندرية، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة "البصير" في الأسكندرية، ثم موظفاً في البنك الأهلي بالأسكندرية حتى ١٩٤٨.

– اعتقل في ١٥ مايرو ١٩٤٨، سنتين في معتقلات "أبو قير" و"الطور" في عهد الملكية لنشاطه في الحركة الوطنية الثورية.

– ثم عمل في شركة التأمين الأهلية المصرية بالأسكندرية حتى ١٩٥٥،وانتقل للقاهرة مترجماً في السفارة الرومانية حتى ١٩٥٩.

– تزوج في ١٩٥٧ وله ولدان وأربعة أحفاد.

في ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية في اتحاد الكتاب الأفريقين الآسيوين حتى ١٩٨٣، واستقال منهما ببعد وصوله إلى منصب السكرتير العام المساعد في كلتا المنظمتين. وعمل بعض الوقت مستشاراً لرئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ولأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين وهو الآن متفرغ للكتابة.

– سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا، في رحلات عمل.

– شارك في إصدار وتحرير مجلة "لوتس" للأدب الأفريقي الآسيوي، ومجلة "جاليري ٦٨" الطليعية، وعدة مطبوعات لكل من منظمة التضامن الأفريقي الآسيوي واتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين.

–ترجم إلى العربية سبعة عشر كتاباً منشوراً في القصة القصيرة والرواية والفلسفة والسياسة وعم الاجتماع، كما ترجم للبرنامج الثاني في الإذاعة المصرية عشر مسرحيات طويلة واثنتي عشرة مسرحية قصيرة، وكتب له تسعة وعشرين برنامجاً إذاعياً طويلاً، وشارك في برامج وندوات ثقافية متعددة فيه، ونشر له عدد كبير من الدراسات والمقالات والترجمات والأحاديث في المجلات الأدبية المصرية والعربية.

-دعى أستاذا زائراً في كلية سانت أنطوني بأوكسفورد خلال فصل الربيع عام ١٩٧٩، وألقى عدة محاضرات بالإنجليزية عن الأدب المصري الحديث في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (soas) جامعة لندن، ومركز الشرق الأوسط في أوكسفورد، وكلية سانت أنطوني، جامعة أوكسفورد، في عامي ١٩٧٩ و١٩٨٧، وفي نادي الأمم المتحدة في نيويورك، ١٩٨٨.

- شارك في ملتقى القصة القصيرة، فاس (١٩٧٩، وف يملتقي الرواية العربية، مكناس (١٩٨٣، وفي مهرجان أصيلة، (١٩٩٨) في المغرب، وفي ندوة جامعة لندن عن آداب الشرق الأوسط في أبريل ١٩٨٧، وفي لقاء الروائيين الفرنسيين والعرب، باريس ١٩٨٨، وفي عدة مؤتمرات وقاءات أدبية في رونده والمرية، ومولينا وغرناطة وطليطلة والمرسية (أسبانيا) وبوادبست، وهايدلبرج وفرانكفورت وفرايبورج وبرلين (ألمانيا)، وتورنتو (كندا) وقام بجولة أدبية واسعة في سويسرا وألمانيا في ١٩٩١، وقام بجولة أدبية في جامعات ييل، وبنسلفانيا، وبرنستون، وكولومبيا (نيويورك) في الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٩٢.

- حاضر في ١٩٩٥ في البرتغال وإيطاليا وإنجلترا، وفي ١٩٩٨ شارك في ندوات عقدت في إكس إن بروفانس واجد ومونيلييه في فرنسا، وأمستردام في هولندا.

-مثل مصر ضيفاً على المؤتمر التذكاري الخامس والستين لنادي القلم الدولي في هامبروج ١٩٨٦.

– شارك في ملتي قابس (تونس) لورواية العربية في ١٩٩٢ حيث تقرر أن يكون "ضيف شرف" للملتقى، وكان موضع تكريم الملتقى في ديسمبر ١٩٩٣.

– شارك في ملتقى القصة القصيرة في عمان (الأردن) عام ١٩٩٣، وفي مهرجان المحبة باللاذقية (سوريا) في ١٩٩٦، وفي ندوة عن (المتخيل والبحر الأبيض المتوسط) في بيروت عام ١٩٩٨.

– في مارس ١٩٩٤ قام بجولة في خمس مدن إيطالية (تورينو، فلورنسه، ميلانو، روما، باري) وألقى فيها محاضرات عن "أسكندريتي، ملتقى الثقافات".

– في عيد ميلاده السبعين أقام له المجلس الأعلى للثقافة في مصر احتفالية حافة في الفترة من ١٩ إلى ٢ مارس ١٩٩٦ شارك فيها نحو أربعين مبدعاً وناقداً وباحثاً. صدر عنها "مغامر حتى النهاية" عن مركز الحضارة العربية للنشر، في ١٩٩٩.

– في أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٦ ألقى سلسلة من المحاضرات في معهد العالم العربي بباريس عن "الاتجاهات الحداثية في فن القص العربي".

– في نوفمبر ١٩٩٦ ألقى في شيكاغو محاضرة عن "طقوس تحدي الموت عند المصريين" وفي نيويور محاضرة بعنوان "تنويعات على موضعات السيرة الذاتية".

– في نوفمبر ١٩٩٨ رأس لجنة التحكيم في مهرجان أفلام ثقافة البحر الأبيض المتوسط في كورسيكا.

– قام بتحرير العدد الخاص بالأدب المصري الحداثي (العدد ١٤) من مجلة "الكرامل" في ١٩٨٤.

– قررت روايته "رامه والتنين" في جامعة باريس.

– ترجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغات الأجبية، وترجمت روايته "ترابها زعفران" للإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والإيطالية، واختارتها الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج "كتاب العام" عن ١٩٩٠.

– ترجمت روايته "حجارة بوبيللو" للفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية والهولندية والأسانبة الكاتلانية والبولندية في برنامج "ذاكرة البحر الأبيض المتوسط".

– ترجمت روايته "يا بنات إسكندرية" إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية.

– صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "رقصة الأشوافط" مترجمة للفرنسية عام ١٩٩٧.

– حصل على جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٣ وعلى جائزة الصداقة الفرنسية والعربية من فرنسا عام ١٩٩١، وعلى جائزة العويس ف يمجال القصة والرواية عام ١٩٩٥/١٩٩٦، وعلى جائزة كفافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨.

قصص ورايات للمؤلف

١- حيطان عالية: مجموعة قصص.

القاهرة: الخراط، ١٩٥٩ ط ٢ ((كاملة) -بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠ ط ٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الأسكندرية: دارس المستقبل ١٩٩٥.

٢- ساعات الكبرياء: مجموعة قصص.

بيروت: دار الآدابو ١٩٧٢.

ط - بيروت: دار الآداب ١٩٩٠.

ط٣ - القاهرة: مختارات فصول، ١٩٩٤.

٣- رامة والتنين: رواية.

القاهرة: الخراط، ١٩٧٩ (طبعة محدودة).

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

ط٢ -بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

ط٣ -الإسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٣.

٤- اختناقات العشق والصباح: قصص.

القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣.

ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٥- الزمن الآخر: رواية.

القاهرة: دار شهدي، ١٩٨٥.

ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٦- محطة السكة الحديد: رواية.

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (مختارات فصول)، ١٩٨٥.

ط٢ - بيروت: درا الآداب، ١٩٩٠.

٧- ترابها زعفران: نصوص إسكندرانية.

القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٦ ط ٢ بيروت: دار الآداب، ١٩٩١.

٨- أضلاع الصحراء: رواية.

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

٩- يا بنات إسكندرية: رواية.

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠.

ط٢ - القاهرة: دار إلياس العصرية، ١٩٩١.

١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة: رواية.

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠.

ط٢ -القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

ط٣ - القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٥..

١١- أمواج الليالي: متتالية قصية.

القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩١.

ط٢ – بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

١٢– حجارة بوبيللو: رواية.

القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٣.

ط٢ – بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.

١٣– اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية.

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.

١٤– رقرقة الأحلام الملحية: رواية.

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٤.

١٥– أبنية متطايرة: رواية.

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٧.

١٦– حريق الأخيلة: رواية.

الأسكندرية: دار المستقبل ١٩٩٤.

١٧– أسكندريتي: كولاج قصصي.

الأسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٤.

١٨– يقين العطش: رواية القاهرة.

دار شرقيات ١٩٩٧..

١٩– تباريح الوقائع والجنون: رواية.

تنويعات روائية القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨

٢٠– صخور السماء: رواية.

شعر

٢١- تأويلات: سبع قصائد إلى عدلي رزق الله.
القاهرة: المجلس الأعلي للثقافة ١٩٩٦.

٢٢- لماذا؟: مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥ -١٩٩٥).
القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٦.

٢٣- ضربتني أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسي).
القاهرة: دار حوار، ١٩٩٦.

٢٤- طغيان سطوة الطوايا.
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦.

٢٥- صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامي علي).
القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٨.

دراسات

٢٦- مختارات من القصة القصيرة في السبعينات.
القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢.
(نفذ) مع دراسة.

٢٧- عدلي رزق الله: مائيات ٨٦: دراسة.
القاهرة: عدلي رزق الله، ١٩٨٦.

٢٨- مائيات صغيرة: دراسة.

القاهرة: ١٩٨٩.

٢٩- أحمد مرسي: دراسة ومختارات شعرية.

القاهرة ١٩٩٠.

٣٠- من الصمت إلى التمرد: دراسات في الأدب العالمي.

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) ١٩٩٤.

٣١- الحساسية الجديدة: مقالات في الظاهرة القصصية.

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.

٣٢- الكتابة عبر النوعية: دراسة.

القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٤.

٣٣- عصيان الحلم: مختارات ودراسات في الشعر.

أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٥.

٣٤- أنشودة للكثافة: في الفن والثقافة.

القاهرة: المستقبل العربيو ١٩٩٥.

٣٥- مهاجمة المستحيل: سيرة ذاتية للكتابة.

دمشق: دار المدى، ١٩٩٦.

٣٦- مراودة المستحيل: حوار مع الذات والآخرين.

عمان: دار أزمنة، ١٩٩٧.

٣٧- أحمد مرسي شاعر تشكيلي.

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (نقوش) ١٩٩٧.

٣٨- ما وراء الواقع: في الظاهرة اللاواقعية.

القـاهرة: الهيئـة العامـة لقصـور الثقافـة (كتابـات نقديـة) ١٩٩٨.

٣٩- أصوات الحداثة: اتجاهات حداثية في القص العربي. بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩.

٤٠- شعر الحداثة في مصر.

٤١- المسرح والأسطورة، أساطير مسرحية.

دراسات معدة للنشر

٤٢- الحلم زهرة المقاومة: في الشعر.

٤٣- من العبث إلى الالتزام في الأدب الوجودي.

٤٤- ملامح أسطورية في مسرح طاغور.

٤٥- مواجهة المستحيل: مقاطع أخرى من سيرة ذاتية.

٤٦- إيماءات عن الفن التشكيلي.

٤٧- المشهد القصصي في مصر الآن.

٤٨- أضواء أخرى على الحساسية الجديدة.

٤٩- في الواقعية وما بعد الواقعية.

٥٠- فجر المسرح.

٥١- في التراجيديا اليونانية.

كتب مترجمة

٥٢- الخطاب المفقود: مسرحية ا. ل. كارجيالي.

القاهرة: الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨. (نفد).

٥٣- الحرب والسلام: لوتولستوي.

القاهرة: الدار المصرية ١٩٥٨ (نفد).

٥٤- الغجرية والفارس: قصص رومانية.

القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨ (نفد).

٥٥- شهر العسل المر: قصص إيطالية.

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب (كتب ثقافية) ١٩٥٩، (نفد) القاهرة ط٢ الهيئة العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٩.

٥٦- فارالاكو: رواية غينية، إميل سيسيه

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب (الألف كتاب) ١٩٦٢. (نفد)

٥٧- أنتيجون: مسرحية جان آنوي، بالاشتراك مع الفريد فرج.

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب (الألف كتاب) ٩٦٣ (نفد).

٥٨- مشروع الحياة: دراسة فرانسيس جانسون.

بيروت: دار الآداب ١٩٦٧. (نفد).

٥٩- ميديا: مسرحية جان آنوي.

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب (مجلة المسرح)، ١٩٦٨ (نفد).

٦٠- الوجه الآخر لأمريكا: دراسة ميكائيل هارنجتون.

بيروت: دار الآداب، ١٩٦٨ (نفد).

٦١- تشريح جثة الاستعمار: دراسة جي دي بوشير.

بـيروت: درا الآداب، ١٩٦٨، (نفـد) ط٢ –القـاهرة دار الياس العصرية، ١٩٩١.

٦٣– نحو التحرر: دراسة هربرت ماركوز.

بيروت: درا الآداب، ١٩٧٢ (نفد).

٦٤– حوريات البحر: قصص.

أمريكية القاهرة: درا الهلال، ١٩٧٩ (نفد).

ط٢ –القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٥.

٦٥– الإسلام والاستعمار: دراسة القاهرة: دار شهدي، ١٩٨٥.

٦٦– الرؤى والأقنعة: قصص مترجمة.

أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٥.

٦٧– السرير المائدة: شعر بول إيلوار.

القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٧

٦٨– ثلاث زنبقات ووردة: قصص مترجمة.

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.

٦٩– سبع مسرحايت قصيرة.

مسرحيات مترجمة للبرنامج الثاني، الإذاعة المصرية.

٧٠– النورس أنطون تشيكوف.

٧١– سوء التفاهم البير كامي.

٧٢- الحصار البير كامي.

٧٣- المجانين البير كامي.

٧٤- مسافر بلا متاع جان آنوي.

٧٥- بيكيت جان آنوي.

٧٦- عنقاء كثيرة الظهور كريستوفر فراي.

٧٧- سوناتا الشبح أوجست سترند برج.

٧٨- انتهت الحرب ماكس فريش.

٧٩- السلام أريستوفانيس.

٨٠- المخرب سول بيلو.

٨١- في قلب السنين إريك بير كوفيتشي.

٨٢- الأسلاف يتميزون غضباً: كاتب ياسين (مسرح الجيب).

٨٣- الهولندي ليروا جونز.

٨٤- الأقزام هارولد بنتر.

٨٥- الطريق البنفسجي إلى حقل الخشخاش موريس ميلدون.

٨٦- الولد الحالم يوجين أونيل.

٨٧- بعد يوم واحد جوزيف كونراد.

٨٨- كلمات على زجاج النافذة وليام بتلر ييتس.

٨٩- البروفيسور تاران أرتير أداموف.

٩٠- الملف والمتسولة والعذاب جوفيند داس.

1- Thesis for M.A.

Temporlity and the Ontological Experience in the work of Virginia Wolf، "To the lighthouse" and Edwar Al-kharrat's "Saffron City": By Maggie H،Awadalla -May 1989 -American University of Cairo

2- Memoire pour maitrise

- Rama Wa-t- Tennin، du myth a Ia mystique، avec traduc-tion de "Mikhail et la Cygne" Ier chapiter de Rama wa-t-Tennin، Par Catherine Farhi، Juin 1989، Universite de Aix-en-provence، sous la direction du P. Charles Viel، France.

٣ – السنة الجامعية ١٩٨٩ –١٩٩٠، بحث لنيل شهادة استكمل الدروس الجامعية

الجوهري أحمد، الرباط –المحكي الشعري في رواية رامة والتنين " جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –تحت إشراف د.أحمد اليابوري.

٤ – السنة الجامعية ١٩٩٠ –١٩٩١، بحث لنيل شهادة الدراسات التكميلية.

عبد الرحمن الناصر –"الوصف في وراية "يا بنات اسكندرية" الرباطو جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تحت إشراف د.أحمد اليابوري.

٥ – السنة الجامعية ١٩٩١ –١٩٩٢، حزء من رسالة دكتوراه نالت مرتبة الشرف الأولى.

– محمد مهدي غالي –"صور الشكل السيريالي (توظيف معطيات الحلم والأسطورة وتيار الوعي)". كلية الآداب، جامعة بنها. (مقتطف) من "تطور الشكل الفني في القصة المصرية القصيرة".

6- Thesis for B.A.

- Real and Dream-like in Edward Al-khrrat's Alexendria. By Magda-Lia Bloos، June 1992 Bucharest University، Romanian، under Dr.Mioara Roman supervision.

7- Thesis for M.A.

- The Stream of consciousness techniques in the modern novel: A comparative study of James Joyce'sULysses and Edwar Al-Kharrat's The Other Time، by Naglaa Roshdy Al-Hawary، 1992. Supervision Prof. Amin Al-Ayouti & Dr. Al-Sayed Al-Bahrawi، Cairo University، Faculty of Arts، The English Department.

٨ – السنة الجامعية ١٩٩٣ –١٩٩٣، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة.

شداق بو شعيب –"تشخيص الخطاب الروائي من خلال الزمم الآخر ورامة والتنين". كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط –تحت إشراف الدكتور محمد برادة.

٩ – النسة الجامعية ١٩٩٢ –١٩٩٣، شهادة الكفاءة في البحث.

الصادق القاسمي –"فن لاقص في رامة والتنين" –كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة الجنوب، صفاقس –تحت إشراف د.محمد الباردي.

10 - Thesis for M.A.

The Aesthetic Faith in the Self، An Lnquiry into James Joyce، "Aportrait of the Artist" J.P.Sartre، Les Mots" and Edwar Al-Khorrat" City of safron". By Nashwa Al-Kassry، 1994، supervision Dr.Ferial Gazonl، A.U.C.

١١– السنة الجامعية ١٩٩٦، رسالة ماجستير في الأدب العربي.

– أحمد خريس –"ثنائيات إدوار الخراط النصية، دراسة في السردية وتحولات المعنى" كلية الآداب –جامعة اليرموك (إربد –الأردن) –تحت إشراف د. خليل الشيخ. (صدرت في كتاب عن دار "أزمنة" عمان الأردن ١٩٩٨).

14- Thesis for M.A.

Alexandria and Forms of the Chronotope: Astudy of Justine، Miramar and City of Saffron، by Ghada El-Koussy، 1997، Supervisin Prof. Radwa Ashour، Cairo University The English Department.

فهرس

أمام البحر..... ٥

داخل السور..... ١٥

جرح مفتوح ٣٥

في الشوارع ٥٣

أقدام العصافير على الرمل..... ٧٧

نقطة دم..... ٩٣

الرملة البيضا..... ١٠٧

التهمة..... ١٣٣

مخلوقات ملكة عبد الملاك..... ١٤٧

رقصة الأشواق..... ١٥٥

ادوار الخراط ١٦٧

قصص ورايات للمؤلف ١٧٣